تبيين الأقـــاويـــل

فـــي

عروبة بني إسرائيل

كتبه

أضعف عباد الله وأحوجهم إلى عفو الله

محمد فاضل

خويدم العلماء وتراب أقدام الفقراء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾

﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾

عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال:

(كان النبي ﷺ يحدثنا عامة ليله عن بني إسرائيل لا يقوم الا لعظيم صلاة)

رواه الحاكم في مستدركه (3476).

بين يدي الكتاب

الأمة الإسرائيلية أمة مستخلفة عاشت إبان البعثة النبوية في الجزيرة العربية وكانت تتكلم بلسان عربي، وقد أكثر المولى سبحانه وتعالى من ذكرها في كتابه النازل بلسان عربي مبين، وكانت قبل ذلك قد نزلت مع نبيها الذي انتسبت إليه (إسرائيل عليه السلام) في صحراء سيناء ثم انتقلت في زمن يوسف عليه السلام إلى مصر ثم سكنت أرض الشام بعد وفاة موسى عليه السلام وقامت لها أول دولة ذات كيان حضاري مستقر في زمن داوود وسليمان عليهما السلام وقد اشتهرت بالتحريف والتبديل فكانت سنة الله سابقة إذ بعث عليها من يسومها سوء العذاب...وعاشت في أرجاء المنطقة العربية محافظة على هويتها وقوميتها ولسانها وثقافتها ووصفت في النصوص الشرعية بالقسوة وغلظ القلوب مع ما اتصفت به من محادة الله ورسله وقتل الأنبياء وتحريف الكتب الإلهية واتباع الهوى والشيطان والإفساد في الأرض كما قضى الله بذلك إليهم في الكتاب الكريم، وكانت الربوبية في أحبارهم ورهبانهم كما قال تعالى ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

وكان بنو إسرائيل قد استوطنوا جزيرة العرب قبل بعثة الحبيب المصطفى ﷺ بنحو ثلاثة قرون وعاشوا في حصون ومجتمعات شبه مغلقة إلا أن تأثيرهم كان بادياً في قلب المجتمعات العربية وغير العربية لما لهم من سوابق العلم بالكتب الإلهية، أضف إلى ذلك ارتباطهم بحرفتي التجارة والربا إذ منحهم قدراً من الاستقلال الاقتصادي عن المجتمعات المحيطة وتولد لديهم شعوراً بالتمايز والتفرد، كما أن انتقالهم في الغالب كقبائل لا كأفراد حفظ تماسكهم ووحدة بنيتهم الاجتماعية، وقد أسهمت الخصومات والعداءات المتكرّرة بينهم وبين الأمة الإسماعيلية في ترسيخ تلك العزلة، بل إن الطرد المتواتر لهم من الأمصار كان مناسبة لإعادة تموضعهم ككتلة متماسكة في موضع جديد وبذلك حافظوا على قوميتهم حيّة ومستمرة عبر العصور، وإلى جانب ذلك فإن وجودهم كقبائل بدوية متنقلة في جزيرة العرب منحهم حرية حركة سهّلت

عليهم الإفساد والتآمر على الدين والناس أجمعين إذ كانوا في الخفاء يدسون الدسائس ويرسمون خطط المكر! وحالهم اليوم يصدق عليه وصف الحبيب المصطفى ﷺ في حديث جبريل عليه السلام: (وإذا كانَ الحُفاةُ العُراةُ **رُؤُوسَ** النّاسِ) رواه البخاري، وفي رواية لمسلم: (وإذا رَأَيْتَ الحُفاةَ العُراةَ الصُّمَّ البُكْمَ **مُلُوكَ** الأرْضِ فَذاكَ مِن أشْراطِها) وهذا الحديث من أعلام النبوة إذ يقوِّم للمسلم الصورة المقلوبة التي ترتسم في ذهنه عن أناس حفاة عراة لا يُفطَن إليهم ولا يُؤبَه لهم ولا يُبالَى بهم ولا تلحقهم الظنون لبذاذتهم وقلّتهم وهم في الحقيقة رؤوس الناس وملوك الأرض وأصحاب الكلمة النافذة في كل محفل ودولة!

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا، واشهد ان لا إله الا الله وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد:

فإن من أعقد القضايا التي دار حولها جدل طويل **قضية بني إسرائيل وعلاقتهم بالعروبة**، لما لهذه المسألة من أثر كبير في فهم نصوص القرآن الكريم ولدورها العميق في تحديد حقيقة العداء التاريخي الذي يواجهه الإسلام اليوم، وإذا ما وُضعت هذه القضية في موضعها الصحيح زال موضع اللبس عند كثير من الناس وزالت الغشاوة عن الأفهام وأمكن بالتالي فهم النصوص وفق مراد الشارع...

ومن خفايا الأمة الإسرائيلية أنَّ البشرَ لن يَهتدوا إلى حقيقتها إلَّا إذا عرفوا من أين بدأَتْ؟ وكيف سارَتْ؟ ولماذا سارت في المسار الذي سارت فيه؟ ولن يفهموا ما يحدث إلا إذا عرفوا ما حَدَثَ ورجعوا إلى الأصل، و لم ينشغلوا بالتَّفريعات والتَّفصيلات والسَّفاسِف الَّتي نفَثَها بنو إسرائيل في أذهانهم، ولو لم يكن موسى عليه السلام مَعْصوماً بالأمر الإلهيِّ، لا يُذْهِلُه عنه شيء لانطلق هائماً على وجهه في الأرض بحثاً عن حجم البقرة ولونها وشكْلها وسِنّها، حتّى يظفر بها؛ فإذا حقَّقَ لبني إسرائيل ما يريدون؛ يكون قد نسي ما يريد!.

وإذا كان القرآن الكريم هو البيان النِّهائي من الخالق إلى الخلق، وفيه تبيانُ كلّ شيء، فإنَّ الصَّادق المصدوق ﷺ هو المبين عن مرادِ الله فيما شرع من معاني دينه وأحكامه الَّتي حكم بها، وآثاره الَّتي بثَّها، والقصص الَّتي قصَّها، وكل خروج عن هدي الرسول الأعظم ﷺ في تحديد

الأُمَّة الإسْرائيليَّة هو عَبَثٌ ضائعٌ، وانحرافٌ عن المسار يُفضي إلى ضلال عن فهم الكتاب، ويوقع في متاهةٍ لا مخرج منها.

وقد استقر في الأذهان عجمة بني إسرائيل وهذا راجع إلى السطو على أفكار الناس وتضليلهم لتتم هيمنة الأمة الإسرائيلية على البشرية! وهذا الأمر لا بد فيه من زمن يكفي لتعميمه وصيرورته من الأمور المسلمة ولا عجب! فإن الأفكار والعقائد والمناهج والأديان التي كتبها بنو اسرائيل بأنفسهم أو بواسطة حلفائهم إنما هي امتداد تاريخي لعصور بني إسرائيل المتعاقبة وليست وليدة الساعة، والهدف من ذلك كله محادة الله ورسله ومحاولة استتباع الناس والسيطرة على العالم كله، وأصبح الحديث عن عروبة بني إسرائيل عقدة تشتبك فيها الخيوط السياسية والفكرية والتاريخية والدينية رسخها الفكر الاستشراقي والروايات التوراتية (الإسرائيليات) والتشويش الكبير والضخ الإعلامي المتوالي.

وسنستعرض في هذه الصفحات الأدلة التي تشير إلى عروبتهم من القرآن والسنة والتاريخ، والله أسال أن يجنبنا الخطأ وهو الموفق والهادي إلى سواء السبيل...

توطئة

قال تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ أي يقرأ عليهم الآيات التي تبين سيرة الأمة الإسرائيلية الماضية والحالية والمستقبلية حسبما يرشد إليه السياق والسباق وتقلباتهم الحياتية المتعلقة بأشراط الساعة الاستقرائية والاستباقية الخاصة بهم والمشتركة بينهم وبين الأمم الغابرة العاصية ولهذا كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقص على أمته عامة ليله عن بن إسرائيل حتى يصبح!

والمتأمل لأشتات قصتهم في القرآن الكريم يوقن بأن هذه الأمة تقيم بين أظهرنا وتقود البشر إلى حيرة الزيغ وظلمة الضلالة وليست أمة بادت ومضت في سالف الدهر وغابره والله المستعان وهو الموفق للصواب الفاتح لمن أمَّ بابه كل باب.

المقدمة الأولى: لمحة عن تاريخ بني إسرائيل

أمة بني إسرائيل أمة بارزة في التاريخ البشري ينبغي دراسة تاريخها وخصائصها بدقة لما لها من دور محوري في معادلة الصراع بين الحق والباطل، وهي أمة عريقة ترجع إلى نبي الله إسرائيل عليه السلام وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله عليه السلام وتاريخ بني إسرائيل لا يدرس كدراسة أحوال الأمم الغابرة فحسب وإنما هو تاريخ حيّ يدرس بعناية وتدبر بهدف فهم الواقع وتوصيفه واستخراج الحق وتحقيقه.

عاش إبراهيم عليه السلام في أرض الكلدانيين بالعراق برفقة زوجه سارة فهاجرا إلى الشام وكانت عاقراً ثم أنجبت إسحاق عليه السلام، ولّما نزلا بديار مصر أكرمه الله بهاجر وأنجبت إسماعيل عليه السلام، ثم خرج بها إلى البلد الأمين، ووضعها وطفلها في واد محاط بجبال فاران، وقفل راجعاً فنظرت إليه والدهشة تأخذها والحيرة تنتابها وهي تقول: آلله أمرك بهذا يا إبراهيم؟ فأجابها السيد الرحيم قائلاً: نعم، فردّت وهي قريرة العين: إذَن فاذهب فإن الله لا يضيعنا.

وقد جاءت البشارة بوصف إسماعيل عليه السلام بقوله عز وجل ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ والحليم الموصوف بالحلم وهذا الوصف قائم بذريته كما جاء في حديث سويد بن الحارث: (أدباء حلماء عقلاء فقهاء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء) وما نعت الله الأنبياء بأقل مما نعتهم بالحلم أي بالعقل والأناة والطمأنينة عند الغضب وهو اسم يجمع أصالة الرأي ومكارم الأخلاق وقد ورد الثناء عليهم في الكتب السابقة: (أمة محمد حلماء رحماء علماء كأنهم في الفقه أنبياء)، وأما إسحاق فقد وُصف بالغلام العليم ﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ أي بشروه بأنه عليم بالدين كما ذكره الفخر الرازي، وقال ابن عطية: أي عالم في حال تكليفه وتحصيله أي سيكون عليماً و"عليم" بناء مبالغة.

وقد عاش نبي الله إسرائيل عليه السلام في الشام في أرض الكنعانيين منعزلاً عن النظام العالمي القائم آنذاك والذي كانت مركزيته في مصر، ووهبه الله اثني عشر ولداً من بينهم يوسف عليه السلام الذي اصطفاه الله بالرسالة وصار بمكانة من أبيه مما أثار حفيظة إخوانه فتآمروا عليه، فكان من الحكمة

أن تجمع قصته في سورة واحدة وهي أطول قصة في القرآن افتتحت بثلاث آيات تمهيدية في ذكر القرآن وحسن قصصه ثم كانت إلى تمام المائة في تاريخ يوسف وإخوته وما قصه تعالى من نشأة بني إسرائيل وانتقالهم إلى مصر وقعود يوسف على سرير المُلك بعد أن كان أميناً على خزائن الأرض حسبما نطق به قوله تعالى ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وقوله ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ أي مُلك الأرض وأعطيتني العز والجاه والسلطان وهذا هو الأليق بحال الأنبياء ومنصب الرسل والفضلاء فإن منصب النبوة والرسالة عظيم شريف لا ينبغي أن يكون فوقه شيء، وبعد موته عليه السلام بدأت قصة بني إسرائيل مع الفراعنة حتى بعث الله تعالى موسى عليه السلام.

وكانت مصر في عهد يوسف عليه السلام دار إسلام ثم رجعت بعد ذلك إلى الكفر والطغيان في الأرض ومعاندة الرب وظن القبط أن الله تعالى لن يبعث رسولاً بعد يوسف عليه السلام كما حكى سبحانه على لسان الرجل المؤمن ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ وصار بنو إسرائيل مضطهدين في مصر تحت حكم الفراعنة الذين أصدروا عليهم أحكاماً قاسية كما جاء في التنزيل العزيز ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

وقصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل من أعجب القصص وفيها من العبر الكثير حيث كشف عز وجل فيها صفات بني إسرائيل وشدة جحودهم وصفاقة وجوههم وعنادهم وتجبرهم! وفي ذلك درس للأمة المسلمة لتعرف حقيقة القوم وأساليبهم ووقاحتهم في الإنكار والتكذيب واستهزاءهم بالله عز وجل وبأنبيائه إذ قالوا لنبيهم: أرنا الله جهرة، وقالوا: اذهب أنت وربك فقاتلا، واتخذوا العجل، وتعنتوا في ذبح البقرة، وزعموا أنهم شعب الله المختار، وقالوا: لن تمسنا النار إلا أياما معدودة وهذا القول في حقيقته إنكار للآخرة...وقد نصح موسى لقومه ولقي في ذلك أشد العناء و لم يؤمن له ابتداء إلا الضعفاء ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ ولما جاوزوا البحر وغرق فرعون أمام أعينهم اقترحوا على رسولهم من الأشياء التي كانت عاقبتها وبالاً عليهم كقولهم: اجعل لنا إلها، وقولهم أرنا الله جهرة، وأبوا

دخول الأرض المقدسة وارتدوا على أدبارهم ووقعوا في الكفر وصدر منهم الخداع والمكر ودقائق الشرك وخفايا النفاق وأسرفوا في التعنت والعناد والاعتراض والإعراض وزادوا على ذلك بالاستهزاء والاستهبال حتى قالوا لرسولهم ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ وقالوا ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ ولا عجب في ذلك! فإن النفوس الذليلة التي عبدت العجل يصعب عليها أن تتخلص من حجب النفس والشيطان والذل والخور والدنس والأدران.

وكل نبي من أنبيائهم بعد موسى عليه السلام إنما بُعِث ليعيدهم إلى خطة الإصلاح الشاملة التي جاءت في التوراة ويكشف ما كتموه أو حرفوه منها.

وبعد رفع المسيح عليه السلام وحلول اللعنة الإلهية ببني إسرائيل نزلوا جزيرة العرب وفق النبوءات الموجودة في كتبهم منتظرين نبي آخر الزمان واستوطنوا نجداً والحجاز، ثم مُسخ من كان في نجد وبقي من كان في الحجاز وعُرفوا ببني النضير وبني قريظة وبني قينقاع...ثم بعث الله تعالى سيد المرسلين وخاتم النبيين عليه صلوات رب العالمين من ولد إسماعيل عليه السلام على خلاف العادة التي جرت في بني إسرائيل حيث كان الأنبياء من نسل إسحاق ويعقوب عليهما السلام لكن هذه المرة بُعث النبي من نسل الغلام الحليم وأُرسل إلى الناس كافة، فشرعوا في الكيد له ﷺ والكيد لأمته! ولكن أنى لهم أن يعاندوا قدر الله النافذ وأن ينالوا من الرسالة المحمدية التي تعهد الله بحفظ كتابها وسنة نبيها ﷺ وقد حفظ الله تعالى هذا الدين بدولة الإسلام ابتداء من النبوة ثم الخلافة الراشدة وبعدها الملك العاض من الأمويين إلى العثمانيين وكل هؤلاء حفظوا الكتاب والسنة وجاهدوا في سبيل الله فحفظ الله الدين بالسلطان حتى أذن عز وجل بالعلو الكبير لبني إسرائيل فبقي الدين محفوظاً عند شيوخ السند والعدالة من أهل البيت النبوي والمرتبطين بهم.

وقد آل أمر ما تبقى من أسباط بني إسرائيل في زمن البعثة النبوية إلى ثلاث قبائل رئيسة: وهم بنو النضير وبنو قينقاع وبنو قريظة بعد أن رحلوا من الديار الشامية واستوطنوا الجزيرة العربية وكانت أكبر تجمعاتهم في يثرب وخيبر ووادي القرى واندمجت هذه القبائل العربية الإسرائيلية مع القبائل الإسماعيلية من الأوس والخزرج وغيرها وكان لهم هيمنة وسيطرة على المجتمع الجاهلي آنذاك فغيروا العقائد وحرفوا الملة الإبراهيمية وحرشوا بين القبائل فسُفكت

الدماء وانتشرت الرذائل وأفسدوا في الأرض – كما هي عادتهم حيثما حلوا – حتى ظهرت دعوة الحبيب الأعظم ﷺ فمالوا مع كفار قريش وحرضوهم وواعدوهم وتآمروا معهم على حرب النبي ﷺ وأصحابه، ولما هاجر ﷺ إلى المدينة اندسوا في تجمعات المسلمين واطلعوا على أسرارهم ولم يتراخوا لحظة في تدبير المؤامرات ضد الإسلام والكيد له بما استطاعوا من الحيل بعد أن اتخذوا من النفاق غطاء لكفرهم وسوء مقاصدهم!.

وكان ممن تعوذ بالإسلام وأظهره من أحبار بني إسرائيل: رافع بن حرُميلة من بني قريظة، قال أبو العباس الحسيني في إمتاع الأسماع: وكان متعوذاً بالإسلام وهو الذي قال النبي ﷺ فيه يوم مات: (لقد مات اليوم منافق عظيم النفاق)، وجبل بن عمرو بن سكينة والنحام بن زيد ونافع بن أبي نافع وأبو نافع وكردم بن زيد وأسامة بن حبيب وجبل بن أبي قشير ووهب بن يهوذا، ومنهم من بني قينقاع سعد بن حُنيف ونعمان بن أوفى بن عمرو وعثمان بن أوفى وزيد بن اللّصيت قال الواقدي: (كان يهودياً فأسلم فنافق وكان فيه خبث اليهود وغشهم وكان مظاهراً لأهل النفاق) وهو الذي قاتل عمر بن الخطاب ﷺ بسوق بني قينقاع وقال في غزوة تبوك: (يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته) فقال رسول الله ﷺ وجاءه الخبر بما قال عدو الله في رحله ودل الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ على ناقته: (إن قائلاً قال: يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء ولا يدري أين ناقته وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله وقد دلني الله عليها فهي في هذا الشعب قد حبستها شجرة بزمامها) فذهب رجال من المسلمين فوجدوها حيث قال رسول الله ﷺ وكما وصف، ومنهم سلسلة بن برهام وكنانة بن صوريّا، فأنزل الله تعالى فيهم سورة البقرة وابتدئت قصتهم بالتنبيه على كفرهم وبيان ترامي أمرهم في الغواية والضلال إلى حيث لا يجديهم الإنذار والتبشير، ولا يؤثر فيهم العظة والتذكير، فهم ناكبون في تيه الغي والفساد عن منهاج العقول، وراكبون في مسلك المكابرة والعناد متن كل صعب وذلول ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ ثم بيَّن أنهم ليسوا بمقتصرين على ما ذكر من محض الإصرار على الكفر بل يضمون إليه **صفة النفاق** المستتبعة للعنة والغضب فنعى عليهم خبثهم ومكرهم

وخداعهم ودعاهم صماً بكماً عمياً وسفههم واستجهلهم وتهكم بفعلهم وعمههم وضرب لهم الأمثال الشنيعة ليكون المؤمنون من خداعهم على حذر ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قال الإمام السجستاني: "يخادعون الله" أي يفسدون ما يظهرون من الإيمان بما يضمرون من الكفر كما أفسد الله عليهم نعمهم في الدنيا بما صاروا إليه من عذاب الآخرة.

ومَن طالع أخبار بني إسرائيل في كتب السير يجد أنهم لم يصرحوا بالعداوة وانما دخل فريق منهم الإسلام ظاهراً وفريق أظهر العداوة والحرب كما في قصة عدو الله حيي بن أخطب بن النضير بن ناخوم من سبط لاوي بن يعقوب الذي حزَّب الأحزاب على حرب النبي ﷺ.

وكان رسول الله ﷺ قد كتب إليهم يوم خيبر فيما روى ابن هشام عن ابن عباس: بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله ﷺ صاحب موسى وأخيه والمصدق لما جاء به موسى: ألا إن الله قد قال لكم يا معشر أهل التوراة وإنكم لتجدون ذلك في كتابكم ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ وإني أنشدكم بالله وأنشدكم بما أنزل عليكم وأنشدكم بالذي أطعم من كان قبلكم من أسباطكم المن والسلوى وأنشدكم بالذي أيبس البحر لآبائكم حتى أنجاهم من فرعون وعمله إلا أخبرتموني: هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد؟ إن كنتم لا تجدون ذلك في كتابكم فلا كره عليكم ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ فأدعوكم إلى الله وإلى نبيه، ثم دفع الراية إلى سيدنا علي كرم الله وجهه وكانت بيضاء فكان أول ما فتح من حصونهم حصن ناعم ثم حصن الصعب وتحولت اليهود إلى حصن قلعة الزبير وهو في رأس قلعة لا تقدر عليه الخيل ولا الرجال لصعوبته وامتناعه فزحف رسول الله ﷺ إليهم والمسلمون فحاصرهم وغلقوا عليهم حصنهم وافتتحه رسول الله ﷺ فكان آخر حصون النطاة ثم فتح حصن أُبي والنزار وبقي من حصونهم الوطيح والسلالم والغموص لابن أبي الحقيق وكان من آخر حصونهم افتتاحاً

وحاصرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة ونصب المنجنيق عليهم فلما أيقنوا الهلكة سألوا رسول الله ﷺ الصلح فصالحهم على أن يحقن دماءهم ولهم ما حملت ركابهم وللنبي ﷺ الصفراء والبيضاء والحلقة وأن يخرجوا بأنفسهم وأهليهم ولمن بقي منهم نصف الثمر كل عام.

وصية الرَّسول الأعظم ﷺ

أخرج الشَّيْخان عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أَنَّهُ قالَ: يومُ الخميس وما يومُ الخميس؟ اشتدَّ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجعُهُ، فقال: (ائتوني أكتبْ لكم كتاباً لن تَضِلُّوا بعدَهُ أبداً) فتنازعوا ولا ينبغي عند نبيٍّ تنازُعٌ، فقالوا: ما شأنُهُ، أَهَجَرَ استفهمُوه؟ فذهبوا يَرُدُّون عليه، فقال: (دعوني فالَّذي أنا فيه خيرٌ ممَّا تدعوني إليه) وأوصاهم بثلاثٍ، قال: (أوصيكم بثلاثٍ: أخرجُوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفدَ بنحو ما كنتُ أُجيزُهُم) وسكت عن الثَّالثة، أو قالها فنَسيتُها.

قال الدَّاودي وابن التين: هي الوصية بالقرآن، وفي الحديث دَلالة على أنَّ هؤلاء المشركين مصدرُ كُلِّ فتنة وضلالة، ومورد كُلّ نزاعٍ وبليَّةٍ، وأنَّ خفاء أشخاصهم وغموض حالهم أصل كُلِّ تيهٍ وحَيرةٍ، وسبب كُلِّ فساد وفرقة...ويبدو أنَّ هذا الكتاب الَّذي هَمّ أن يكتبه النّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم أراد أن ينُصَّ فيه على المشركين من بني إسرائيل ليرتفع النِّزاع عن الأُمَّة ويحصل الاتفاق على المنصوص عليه، وكان صلى الله عليه وآله وسلم همَّ بالكتاب حين أُوحيَ إليه بذلك أو ظهر أنَّ المصلحة تركه، وكلام عمر رضي الله عنه في الرواية الأخرى من الدَّلائل على فقهه وفضائله، ودقيق نظره، حيث قال: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد غَلَب عليه الوَجَع، وعندكم القرآن، حسبنا كتابُ الله، فعلِم أنَّ الله تعالى حفظ دينه في القرآن الكريم، وأمِن الضَّلال على الأُمَّة .

فإن قيل: ما حُجَّتكم على أنَّ المراد بالمشركين: يهودُ ونصارى بني إسرائيل على وجه الخصوص؟ فالجواب: ما دلَّت عليه الرِّوايات الأخرى؛ ففي صحيح البُخَارِيِّ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما نحن في المسجد خرج النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال: (انطلقوا إلى يهود) فخرجنا حَتَّى جئنا بيتَ المِدْراس، فقال: (أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا، واعلَمُوا أنَّ الأرضَ للهِ ورسولِهِ، وإنِّي أريدُ أنْ أُجلِيَكُم من هذه الأرضِ فمَنْ يَجِدْ منكم بمالِه شيئاً فليبعْهُ، وإلَّا فاعلموا أَّن الأرضَ للهِ ورسولِه) والخِطَاب هنا لبني إسرائيل، وفي المعجم الكبير للطَّبراني: (أخرجوا اليهودَ من جزيرة العرب) وفي مُسند البزَّار: (أخرجوا اليهودَ والنَّصَارَى من جزيرة العرب) وفي سُنن التِّرمذيِّ: (لئن عِشتُ إن شاء اللهُ لأُخْرِجَنَّ اليهودَ والنَّصَارَى من جزيرة العرب) وفي صحيح مسلم: (لأُخْرِجَنَّ

اليهودَ والنَّصَارَى من جزيرة العرب حَتَّى لا أدعَ إلَّا مُسلماً) وفي مُسند أحمدَ من حديث عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالت: كان آخر ما عهِد رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم أن قال: (لا يُتركُ بجزيرة العرب دينانِ) وفي السُّنن الكبرى للبيهقيِّ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيبر دعا يهود فقال: (نعطيكم نصف الثَّمَر على أن تعملوها، أُقرُّكُم ما أَقرَّكُم اللهُ عَزَّ وجَلَّ) ثُمَّ إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال في مرضه الَّذي توفِّيَ فيه: (لا يجتمعُ في جزيرة العرب دينان) فأجلاهم سيدنا عمر رضي الله عنه بعد زوال دولتهم في الوعد الأوَّل.

تلخيص المسار التاريخي لبني اسرائيل

الأمة الإسرائيلية كانت عشائر بدوية متنقلة وقد دلّ على ذلك قول يوسف عليه السلام في القرآن الكريم: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ فكان عليه السلام يسكن البادية كما يقول البغوي رحمه الله: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ والبدو بسيط من الأرض يسكنه أهل المواشي بماشيتهم، وكانوا أهلَ بادية ومواشي، يقال: بدا يبدو بدواً إذا صار إلى البادية (تفسير البغوي 516/2).

وقد توارد المفسِّرون أنَّ البادية التي سكنَها يعقوبُ عليه السلام كانت في الشام، يقول قتادة رحمه الله: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ (كان يعقوب وبنوه بأرضِ كنعان، أهل مواشٍ وبرِّيَّة) (تفسير الطبري 275/16)، ويقول الطبري رحمه الله: (وقوله: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ يقول جل ثناؤه مخبراً عن قول يوسف: وقد أحسن الله بي في إخراجه إيّاي من السجن الذي كنتُ فيه محبوساً، وفي مجيئه بكم من البدو، وذلك أن مسكنَ يعقوب وولده فيما ذكر كان ببادية فلسطين) (تفسير الطبري 275/16) ويقول القرطبي رحمه الله: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ (يروَى أن مسكن يعقوب كان بأرض كنعان، وكانوا أهل مواش وبَرِّيَّة) (تفسير القرطبي 267/9) فكان إسرائيل عليه السلام يسكن في تلك الديار في بادية فلسطين، يقول ابن كثير رحمه الله: (قال ابن جريج وغيره: كانوا أهل بادية وماشية، وقال: كانوا يسكنون بالعربات من أرض فلسطين من غور الشام) (تفسير ابن كثير 412/4).

ويمكن تلخيص مسارهم التاريخي في محطات كبرى:

1. لما هاجر إبراهيم عليه السلام إلى الشام أسس فيها أسرة إسحاق ويعقوب.
2. عاشت أسرة يعقوب عليه السلام في صحراء سيناء (العربية) حياة البدو.
3. ثم انتقلوا إلى مصر (العربية) مع يوسف عليه السلام وبقوا فيها حتى زمن موسى عليه السلام.
4. خرجوا مع موسى عليه السلام إلى سيناء والتيه وظلوا على بداوتهم.
5. ثم دخلوا بيت المقدس (العربي) مع يوشع بن نون وأقاموا وجوداً متقطعاً.

6. بعد رفع المسيح عليه السلام نزلوا جزيرة العرب وكان لهم نفوذ واسع على المجتمع الجاهلي داخل وخارج جزيرة العرب بما أحدثوه من الديانات المتفرقة والملل المتباينة المتنوعة.

7. أجلاهم الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه من جزيرة العرب عام عشرين للهجرة النبوية.

استطاع بنو إسرائيل أن يحافظوا على هويتهم وقوميتهم رغم تنقلاتهم المتكررة في البلاد العربية بين مصر وسيناء وفلسطين والجزيرة العربية ثم الشام والعراق وذلك عبر جملة من العوامل المتداخلة فقد شكّل العنصر عندهم أساس الهوية إذ كانوا يعدّون أنفسهم شعب الله المختار ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ المرتبط بميثاق خاص مما خلق حاجزاً نفسياً يحول دون ذوبانهم في غيرهم، كما التزموا بعزلة اجتماعية واقتصادية متعمدة فحياتهم كانت تدور في أحياء ومجتمعات شبه مغلقة، مع منظومة طقوسية وقوانين تجعل الاندماج مع الآخرين صعباً، كما أنهم حافظوا على استقلال اقتصادي نسبي وكان للذاكرة الجمعية دور مركزي، إذ ظلّت قصص الخروج من مصر وهلاك عدوهم بالغرق والمنن التي أنعم الله بها عليهم حاضرة في وجدانهم جيلاً بعد جيل تُورث الأبناء إحساساً بالتمايز، كما أن انتقالهم كأسباط سهل بقاءهم كتلة متماسكة، ثم إنهم موعودون بالاستخلاف والملك العريض وبذلك استمرت قوميتهم حية إلى العصور اللاحقة وهذا سر نداءهم ببني إسرائيل في الكتب الإلهية.

المقدمة الثانية: يا بني إسرائيل

خاطب المولى سبحانه بني إسرائيل في كتابه الكريم وأقبل عليهم بنداء جليل بعد أن مهّد بين يدي ذلك بقصة آدم وإبليس فذكرهم بنعمه وآلائه ليوفوا بعهده وميثاقه الذي أخذه عليهم بتوحيده وعبادته وعدم الإشراك به شكراً على تفضيله لهم ورغبة في العودة إلى مقام التكريم، وقوله ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ خطاب لذرية يعقوب وفي ذريته انحصرت الأمة اليهودية والنصرانية، وقد خاطبهم بهذا الوصف دون أن يقول: يا أيها اليهود والنصارى لأن من كان متبعاً دين اليهودية والنصرانية من غير بني إسرائيل لا يعتد بهم أصلاً لأنهم **تبعٌ** لبني إسرائيل يسوقونهم إلى موارد التلف والهلاك فلو آمن بنو إسرائيل لآمن أتباعهم إذ أن المقلد تبع لمقلده، ولأن هذا الخطاب للتذكير بنعم الله على أسلافهم فكان لندائهم بعنوان كونهم أبناء يعقوب عليه السلام وأعقابه مزيد مناسبة لذلك، ألا ترى أنه لّما ذُكروا بعنوان التديّن بدين موسى عليه السلام ذُكروا بوصف الذين هادوا، ولّما ذُكروا بعنوان التديّن بدين عيسى عليه السلام ذُكروا بوصف النصارى، وتوجيه الخطاب إلى جميع بني إسرائيل يشمل علماءهم وعامتهم لأن ما خوطبوا به هو من التذكير بعهد الله لهم، وعندما يكون الغرض من الخطاب التنبيه على علمائهم نجِد القرآن يُعَنْوِنُـــهم بوصف ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أو ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أو ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾، وتخصيص القَبْلية: لبيان حقيقة الكتب المنزلة على الأمة الإسرائيلية خاصة إذ كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وللإشعار بأن من دان الكتاب بعد نزول القرآن خرج عن وصف أهل الكتاب.

وقد يستغنى عن ذلك بكون الخبر المسوق مما يناسب علماءهم خاصة كقوله سبحانه: ﴿وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ فإذا جاء الخطاب بأسلوب شامل لعلمائهم وعامتهم صُرف إلى كل طائفة من الطائفتين ما هو لائق بها، والتفطّن لرتب البيان في موارد هذا النحو من الخطاب في القرآن من مفاتيح الفهم وبوادي مزيد العلم.

فهذا النداء: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ يخاطب جماعة بشرية معينة (ذرية) ذات هوية عرقية وتاريخية ممتدة، وليست مجرد جماعة دينية أو فكرية (فاليهودية ملة وكذلك النصرانية) أما الخطاب ببني إسرائيل فإنه تعريف رباني شامل لهويتهم المتوارثة عبر الأجيال، هوية لا تتغير ولا تُمحى عبر القرون.

والتنبه لهذا النداء على وجهه الصحيح يوضح كثيراً من الحلقات المفقودة في تفسير التاريخ وفهم نصوص الوحي ويكشف حقيقة الصراع الذي لن ينقطع إلى قيام الساعة.

والقرآن لم يخاطبهم بوصفهم جماعات يتقلبون في الديانات بل جاء الخطاب الإلهي في الكتب الإلهية ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ فالهوية الإسرائيلية حاضرة حيثما ارتحلوا لا تتغير بتغير أسمائهم وأديانهم!

والتضليل الإعلامي اليوم حَصَرَ القضية في ديانة عبرية لا علاقة لها بالعروبة حتى أصبح يذكر اليهود في مقابل العرب وتم ترسيخ هذا المفهوم عبر وسائل الإعلام التي رسخت لمصطلح الصراع العربي الإسرائيلي! وكأن عجمة بني إسرائيل أصبحت من المسلمات! وتم سجن العقول وبناء الأفكار على هذه المصطلحات دون التفكير بمعناها أو لماذا سيقت وماذا بُني عليها؟ واستطاعت أجهزة الإعلام ترسيخ هذه المفاهيم الخاطئة لتبني عليها صروحاً فكرية وعقدية ساهمت في صياغة النظام السياسي في العالم الجديد بعد سقوط الخلافة العثمانية، ثم أُفرغت بعد ذلك النصوص القرآنية والدينية من محتواها وتم سَوق الأمة إلى تيارات فكرية وجماعات وأحزاب دينية رسمها لهم العدو الإسرائيلي الذي عاد إلى جزيرة العرب بوجه جديد.

المقدمة الثالثة: دور الإعلام في ترسيخ المسلمات الخاطئة

هل نعيش واقعنا أم واقعاً رُسم لنا؟

العالم اليوم جزء من منظومة متكاملة تهدف إلى تشكيل وعينا وفق نمط محدد مسبقًا، نحن لا نولد بأفكار جاهزة، لكننا نُبرمج عليها تدريجياً، حتى نظن أنها أفكارنا الخاصة، والسؤال هو: من الذي برمج عقولنا؟

مراحل السيطرة على العقل البشري:

1-**التعليم**: القالب الأول

ليس الهدف من التعليم أن يمنحنا القدرة على التفكير، بل أن يجعلنا جزءاً من المنظومة دون تساؤل، المناهج تُصمم بعناية لتغرس فينا رؤية محددة عن العالم، نقبلها دون نقاش، بينما تُقصى أي أفكار مخالفة. الاختلاف في الرؤية المرسومة يُعتبر خروجاً عن "الطريق الصحيح"، مما يدفع الناس إلى التكيف مع الفكر السائد بدلاً من البحث عن الحقيقة .

2-**الإعلام**: صناعة القناعات

الأخبار ليست مجرد معلومات، بل أدوات لصياغة الرأي العام، الأفلام والبرامج لا ترفّه عنا فقط، بل تزرع في عقولنا مفاهيم معينة عن الخير والشر، العدو والصديق، النجاح والفشل، ثم تكرار نفس الأفكار عبر مصادر مختلفة يجعلنا نعتقد أنها "حقائق مسلمة"، بينما قد تكون مجرد سردية مختلقة.

3-**المجتمع**: سجن غير مرئي

الضغط الاجتماعي يُستخدم لقمع أي فكرة جديدة: "الجميع يؤمن بهذا، لماذا تشكك؟، بنو إسرائيل أعاجم" كل من يخرج عن المسار يُوصف بالمجنون أو المتآمر، مما يجعله إما يستسلم أو يُقصى، فكرة "النجاح" نفسها يتم التلاعب بها: العمل، المال، الشهادات...كلها مقاييس وضعها النظام العالمي ليُحدد لنا هدف حياتنا، بدلاً من أن نكتشفه بأنفسنا، لماذا يتم هذا التحكم؟

الهدف هو السيطرة وضمان ألا تفكر خارج الإطار المرسوم لك.

النظام يحتاج إلى أتباع، لا مفكرين مستقلين، البشر غير الواعين يمكن استغلالهم بسهولة، سواء كأيدٍ عاملة أو كوقود للحروب أو كمستهلكين دائمين، الحقيقة الأقوى: إذا أدركت أنك داخل السجن، تصبح خطيراً على النظام العالمي!

ويمكن كسر هذه البرمجة بأن لا نعتمد على مصدر واحد للمعلومات: فمن يسيطر على الإعلام يسيطر على عقولنا، ويجب أن نقرأ النصوص قراءة جديدة غير القراءة المألوفة (بل الوحيدة) حالياً التي تتبناها جميع مراكز الدراسات السياسية في العالم والتي يستوي في معرفتها وتحليلها العالم والجاهل والمتدين وغير المتدين والمسلم والكافر!، فإن لم نخرج من القطيع، سنظل مجرد رقم في نظام صُمم للتحكم بنا، فعندما يبرمج القطيع لا يحتاج الذئب إلى سلاسل.

منذ لحظة ولادتنا نحن محاطون بمن يخبرنا كيف نفكر، لا بما يجب أن نفكر فيه.. نتلقى الحقائق دون أن نُمنح فرصة لاختبارها بأنفسنا، يضعوننا في مدارس وجامعات ومعاهد، يلقنوننا نظريات، يختارون لنا قنوات الأخبار، ويقدمون لنا "العلم" ككتاب مقدس لا يجوز التشكيك فيه.

لكن هل تساءلنا يوماً: لماذا الحقيقة تحتاج إلى رقابة؟ ولماذا يُسخر الإعلام والعلم والساسة لحماية فكرة معينة ومنع أي مساس بها؟ "بنو إسرائيل أعاجم، الفضاء لا نهائي، الأرض كروية"...كلها أفكار لم نكتشفها بأنفسنا، بل زرعوها فينا كما تزرع البرامج في الآلات، وما إن يحاول أحد كسر هذه القوالب حتى يهاجم ويسخر منه، ليس من قبل من يتحكمون بالنظام، بل من القطيع نفسه!

هذه هي حقيقة التحكم بالعقول...عندما يصبح العبيد هم من يدافعون عن قيودهم، ويهاجمون من يحاول تحريرهم، الذئب لم يعد بحاجة إلى مطاردة الخراف، لقد جعلها تخاف الحرية بنفسها.

المقدمة الرابعة: العرب العاربة والمستعربة

من أكثر المفاهيم التي ترسّخت في الوعي العربي التقليدي، مقولة أن العرب ينقسمون إلى (عاربة) و(مستعربة)، فيُقال إن العاربة هم القحطانيون من جنوب الجزيرة، والمستعربة هم العدنانيون من نسل إسماعيل عليه السلام، ممن تعلّموا العربية لاحقًا من مخالطتهم لقبيلة جرهم، هذه المقولة لم تثبت في كتاب الله، ولا في سنة نبيه، وإنما تسللت من روايات القُصَّاص وأهل الإسرائيليات إلى كتب الأنساب، فشاعت كأنها من الحقائق.

ورغم بساطتها الظاهرة، إلا أنها تخفي نزعة عنصرية مستترة، توهم بأن نسب سيدنا محمد ﷺ يعود إلى أصل غير عربي، وأن لسانه الشريف كان مكتسباً، وأن الرسالة التي أنزلت عليه ليست بلغة قومه، ولازم هذا التقسيم أن إسماعيل عليه السلام وقريشاً وعرب اليمن مستعربون! والأعجب من هذا أن يجعل بعضهم تعلُّم إسماعيل عليه السلام العربية من جرهم دليل على عجمة إبراهيم عليه السلام! وهو قول مردود بشواهد الآثار وبدلائل القرآن قصد به أهل الكتاب ترويج مزاعمهم أن كتبهم لم تنزل بالعربية! والحق أن إبراهيم عليه السلام كان عربياً فإنه عليه السلام لما جاء يطالع تركته في البلد الأمين و لم يجد إسماعيل عليه السلام سأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشرٍّ نحن في ضيق وشدة فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل عليه السلام كأنه آنس شيئاً فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنّا في جهد وشدة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول غير عتبة بابك، قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك الحقي بأهلك، فطلقها وتزوج منهم أخرى...ثم لما جاء في المرة الأخيرة قال يا إسماعيل: إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتاً وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل إسماعيل عليه السلام يأتي بالحجارة وإبراهيم عليه السلام يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه

له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: "ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم" والقصة رواها البخاري بطولها في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما...وروى البخاري أيضاً من حديث سلمة رضي الله عنها قال: خرج رسول الله ﷺ على قوم من أسلم يتناضلون بالسوق فقال: (ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً) وأسلم قبيلة عربية يمانية قحطانية، وقد بوّب الإمام البخاري لهذا الحديث بقوله: "باب نسبة اليمن إلى إسماعيل" وهذا ظاهر قول أبي هريرة في قصة هاجر حيث قال وهو يخاطب الأنصار: (فتلك أمكم يا بني ماء السماء) وأما حديث أبي ذر رضي الله عنه: (وأربعة من العرب: هود وصالح وشعيب ونبيك) ففي إسناده إبراهيم بن هشام وقد تكلم فيه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل، ويعارضه ما هو أقوى منه وهو عموم الآيات والأخبار السابقة وقد بيَّن ﷺ أنه أعرب العرب أي أشدهم في كمالات العرب وفصاحتها على نحو ما رواه الطبراني في المعجم الكبير عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب أنا أعرب العرب ولدتني قريش ونشأت في بني سعد بن بكر فأنى يأتيني اللحن؟)

والحق أن مصدر تقسيم العرب إلى عاربة ومستعربة مأخوذ عن أهل الكتاب[1] وقد اختلف البعض في صحة هذا التقسيم لكنهم غفلوا عن الغاية الأساسية من هذه المكيدة التي تتعلق بعروبة

1- يظهر أن عموم المفسرين من المعاصرين قد ذموا دخول الإسرائيليات في كتب التفسير، قال الدكتور رمزي نعناعة: (لم يطمئن كثير من المسلمين منذ عصور مبكرة إلى التفسير المروي في جملته فتناولوه بالنقد إجمالا وتفصيلاً ... وبالجملة فكتب التفسير من عهد ابن جرير إلى اليوم لا يكاد يخلو تفسير منها من إسرائيليات إلا أنها متفاوتة قلة وكثرة. نعم هناك مفسرون وقفوا من هذه الروايات موقف الناقد المنكر وبخاصة المتأخرين منهم الذين تسنى لهم الاطلاع على أسفار أهل الكتاب بعد أن ترجمت وعرفوا ما فيها من تحافت وتحريف وتغيير إلا أن هذا لم يكن شاملاً وإن الناقدين أنفسهم رووا كثيراً منها في مناسبات كثيرة، وفي اعتقادي ان سبب الإكثار والإقلال من رواية هذه الإسرائيليات في كتب التفسير يرجع إلى رأي المفسر في حكم روايتها وإلى بيئته وثقافته) أهـــ. وهنا امر مهم يجب التنويه اليه وهو رأي العلماء في النقل عن اهل الكتاب واضح وهو عدم التعارض مع الكتاب والسنة، اما ما خالفهما فنرده، فنفهم من ذلك أن المبدأ الأساسي في علم التفسير فيما يتعلق بقبول هذه المرويات هو كونها لا تتعارض مع جوهر الدين وأمَّا ما يتعارض منها مع جوهر الدّين فلا يؤخذ به. ونلاحظ أن العديد من المرويات الإسرائيلية وردت في التفسير، خاصة في

بني إسرائيل واتهام قريش بأنهم مستعربون ليثبت في الأذهان أن إبراهيم عليه السلام لم يكن عربياً وبالتالي بنو إسرائيل ليسوا من العرب! وقد حرص بنو إسرائيل أشد الحرص على صرف أنظار المسلمين عنهم وتوجيهها إلى الأعاجم من الروم والفرس وأخلاط الأمم المتهودة ثم روَّجوا لمصطلح الصراع العربي الإسرائيلي! وكأن بني إسرائيل لا علاقة لهم بالعرب! والحق أنه صراع إسماعيلي إسرائيلي حول الاستخلاف في الأرض، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان حيي بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهود العرب حسداً إذ خصهم الله برسوله ﷺ وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام ما استطاعا فأنزل الله فيهما "وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم" الآية.

والحقيقة أنّ كلّ العرب، عدنانية وقحطانية، ومن يومها الأوّل عرب عاربة، ليس فيها مستعربة.

يقول ابن كثير فى كتابه "قصص الأنبياء" أن هود كان من قبيلة يقال لهم عاد بن عوص بن سام بن نوح وكانوا عرباً يسكنون الأحقاف، ويقال أن هوداً عليه السلام أول من تكلم العربية، فيما قال غيره أن نوح أول من تكلم بها، وقيل آدم وهو الأشبه والله أعلم، أ.ه، وفي سورة نوح: (لَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) وهذه أسماء عربية لرجال صالحين بعد نوح عليه السلام بأزمان تُبيِّن أَن نوحاً عليه السلام كان عربياً وقد روى الطبري في التفسير عن قتادة قال: كان ود لهذا الحي من كلب بدومة الجندل، وكانت سواع لهذيل، وكان يغوث لبني غطيف من مراد بالجوف من سبأ، وكان يعوق لهمدان ببلخع، وكان نسر لذي كلاع من حمير، قال: وكانت هذه الآلهة يعبدها قوم نوح عليه السلام ثم اتخذها العرب بعد ذلك، أ.ه.

وسام هو ابن لنوح عليه السلام قد تكلم العربية فلا يمكن سلخ الابن عن أبيه، وقد روى الإمام الترمذي عن سمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم)

تفسير الآيات التي تتحدث عن القصص القرآنية، وأحاديث سيدنا محمد ﷺ التي تتحدث عن الاخذ عنهم مثل حديث: (لا تصدقوا اهل الكتاب ولا تكذبوهم) او حديث: (حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج) يحمل على ما أسلفنا.

المقدمة الخامسة: هيمنة بني إسرائيل على المجتمع الجاهلي

كان بنو اسرائيل أنفذ الناس قولاً في عامة العرب وكان المشركون في الجاهلية يدينون لهم بالولاء ويفزعون إليهم في التشاور في شأن نبوة سيدنا محمد ﷺ حيث كان بنو إسرائيل يفوقونهم بالعلم في الكتب الإلهية ومن أجل ذلك كانت قريش ومن حولها من قبائل العرب تسترشدهم في شؤونها فتتلقّى منهم صوراً من الكذب والكيد والتشغيب، وقد تهوّد وتنصّر كثير من العرب لاعتقادهم في صحة دين بني إسرائيل! وشأن بني إسرائيل مشهور بمكة حيث كان لأهل مكة صلات مع بني إسرائيل ومراجعة بينهم في مسألة النبوة، ووردت في السيرة حوادث دالة على سيطرة بني إسرائيل على المجتمع الجاهلي وأسوق منها صوراً:

أحدها: ما ورد في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (كان عاشوراء يصومه أهل الجاهلية) وفي رواية: (كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية) وفي رواية للبخاري: (وكان يوماً تستر فيه الكعبة) وفي رواية لمسلم: (إنه يومٌ تعظمه اليهود والنصارى) ومعلوم أنه يومٌ نجَّى الله بني إسرائيل من عدوهم.

الثانية: ما أخرجه ابن حبان في صحيحه عن ابن عباس قال: (كانت المرأة من الأنصار لا يكاد يعيش لها ولد فتحلف لئن عاش لها ولد لتهوّدنه فلما أُجليت بنو النضير إذا فيهم ناس من أبناء الأنصار فقالت الأنصار: يا رسول الله أبناؤنا، فأنزل الله هذه الآية: لا إكراه في الدين).

الثالثة: ما أخرجه الترمذي عن أبي واقد الليثي أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى حنين مر بشجرة للمشركين يقال لها: ذات أنواط يعلقون عليها أسلحتهم، فقالوا: – يعني بعض من دخل في الإسلام حديثاً ولم يتعلم من أدلة الأحكام آية ولا حديثاً – يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: (سبحان الله هذا كما قال قوم موسى ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٌۚ﴾ والذي نفسي بيده لتركبن سُنَّة من كان قبلكم).

الرابعة: روى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال جبل بن أبي قشير وسَموَل بن زيد – من بني قريظة – لرسول الله ﷺ: يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً كما تقول فإنا نعلم متى هي، فأنزل الله تعالى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ إلى قوله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقد عُرف من شنشنتهم إنكارهم البعث وتهكمهم بالرسول عليه الصلاة والسلام! وقيل: نزلت في كفار قريش وأياً ما كان فإن كفار قريش كانوا يرجعون إلى يهود كونهم أهل كتاب وأعلم بالرسالات السماوية! ونحوه قوله جل شأنه ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي سؤال إنكار واستبعاد واستهزاء لأنه لا يؤمن بالبعث والآخرة!.

والدليل على الصلة بين أهل الكتاب وكفار قريش سؤالهم عن عدة ملائكة النار، أو عن الروح أو عن أهل الكهف.. والسؤال مصدره أهل الكتاب. ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ وسورة المدثر من أوائل السور نزولاً على المصطفى ﷺ.

وروى الحاكم في المستدرك والبيهقي في الدلائل كلاهما من طريق ابن إسحاق ببعض اختلاف في الألفاظ عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان يهودي قد سكن مكة فلما كانت الليلة التي ولد فيها النبي ﷺ قال: يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود؟ قالوا: لا نعلم، قال: فإنه ولد في هذه الليلة نبي هذه الأمة بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنهن عرف فرس، فانصرفوا فسألوا فقيل لهم: قد ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام، فذهب اليهودي معهم إلى أمه فأخرجته لهم، فلما رأى اليهودي العلامة خر مغشياً عليه وقال: أفرحتم يا معشر قريش أما والله سيكون لكم سطوة

يخرج حديثها من المشرق إلى المغرب لقد ذهبت والله دولة بني إسرائيل، فلما سمعوا ذلك منه خلصوا نجياً. قلت: هذا الخبر يؤكد سيطرة بني إسرائيل على المجتمع الجاهلي في مكة قبل البعثة.

المقدمة السادسة: عربية إسماعيل عليه السلام

القول بأن إسماعيل عليه السلام (استعرب) بعد أن خالط جرهم، لا أصل له في الوحي، ولا تثبته الحجة، فإن إسماعيل نشأ في مكة، وهي أرض عربية، وتزوج امرأة عربية من جرهم، وتكلّم بلغة قومه، وذريته هم سكان الحجاز، ومنهم جاء النبي ﷺ فكيف يُقال إنه تعلّم العربية وكأنها لغة دخيلة عليه؟ بل هو نبي، والأنبياء لا يُبعثون إلا بلسان أقوامهم، كما قال تعالى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾، فإسماعيل عليه السلام كان عربيًّا بلسانه وبيئته وسياقه، ولا وجه لنزعه من أصله.

ومن المهم الإشارة إلى أن اللغة العربية تتكون من عدة لهجات محلية تختلف من منطقة إلى أخرى، ومع ذلك، فإن اللهجة التي كانت تُستخدم في مكة والمدينة، والمعروفة باللهجة القرشية، أصبحت الأكثر تأثيرًا وانتشارًا بفضل موقع مكة كمركز تجاري وديني، يقصده الحجاج العرب من كل مكان، وكانت هناك لهجة عربية تكلم بها أهل مصر وأخرى تكلم بها أهل الشام وأخرى لأهل الرافدين وهكذا، وما حال ألسنة البلدان العربية اليوم إلا امتداد لما هو عليه قبل آلاف السنين عندما كان سيدنا إبراهيم عليه السلام يتكلم بلهجة بلاد الرافدين وسيدنا عيسى عليه السلام بلهجة أهل بيت المقدس وفرعون مصر بلهجتها وهكذا كل حسب بلده.

واستشكل بعضهم خبر ابن عباس رضي الله عنهما: (أول من نطق بالعربية إسماعيل) وأجاب شيخ الإسلام ابن حجر بما رواه الزبير بن بكار في النسب من حديث علي بإسناد حسن قال: (أول من فتق الله لسانه بالعربية المبينة إسماعيل) وبهذا القيد يجمع بين الخبرين فتكون أوليته في ذلك بحسب الزيادة في البيان لا الأولية المطلقة فيكون بعد تعلمه أصل العربية من جرهم ألهمه الله العربية الفصيحة المبينة فنطق بها ويشهد لهذا ما حكاه ابن هشام عن الشرقي بن قطامي: إن عربية إسماعيل كانت أفصح من عربية يعرب بن قحطان وبقايا حمير وجرهم، قال النحاس: عربية إسماعيل هي التي نزل بها القرآن وأما عربية بقايا حمير فغير هذه العربية وليست بفصيحة وإلى هذا مال جماعة من الأئمة.

قلت: بعد نشأة إسماعيل على عربية إبراهيم وهاجر تعلم عربية جرهم ثم ألهمه الله تعالى العربية الفصيحة فالعربية المبينة الفصيحة لغة إسماعيل عليه السلام وورثها عنه بنوه ثم صارت إلى قريش خاصة وصار لفظ العرب علماً بالغلبة عليهم كما جاء في الخبر الأطهر: (حب العرب إيمان وبغضهم نفاق) وقريش ارتفعت في الفصاحة عن عنعنة تميم وكشكشة ربيعة وكسكسة هوازن وتضجع قيس وعجرفية ضبة وتلتلة بهراء وبذلك يتبين أن القبائل التي كانت تجاور مكة كانت تتكلم بلهجاتها العربية الخاصة بها كما كانت للعراق والشام ومصر لهجاتها العربية الخاصة بها وكانت هاجر تتكلم بلهجة مصر ولو لم تكن عربية لكان أمر التفاهم معها صعباً فقد جاء في صحيح البخاري: (وأم إسماعيل عند الماء فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم، قال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الإنس فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم).

وإذا كان إسماعيل أول من فتق الله لسانه بالعربية المبينة فإن ضرورة البرهان تقتضي انطواء لغة العرب على قسمين: قسم يرجع إلى ما قبل إسماعيل، والقسم الآخر العربية الفصيحة المبينة التي بها نزل القرآن وأول من أطلق لسانه بها إسماعيل وبذلك انطلق لسانه من الكلام في مذهبٍ أوسع منحى وأوضح دلالة وأبين معنى وأجود فصاحة.

وبهذا يتبين أن لغة العرب أسبق اللغات وجوداً وهي اللسان الأول الذي نزل به آدم من الجنة وهي لسان عاد وثمود وجديس وحمير وجرهم وقحطان والعماليق ولسان إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأمم المستخلفة التي كانت قبل الخليل عليه السلام.

ولا يمكن الاستناد إلى الأثر الأوَّل للقطع بأن إسماعيل عليه السلام هو أول من تكلم العربية، فقد كان قبل إسماعيل عليه السلام عاد وثمود وهم من العرب، فلا بد من تقييد مطلق الأثر الأوَّل بقيد (المبينة) في الأثر الثاني، ليكون إسماعيل عليه السلام أول من تكلم بالعربية الفصحى التي نزل بها القران الكريم والتي تفوقت على سائر اللهجات العربية الأخرى بسعة مفرداتها وشدة بيانها وبلاغتها.

وعلى كل لو قلنا أَنْ إسماعيل عليه السلام تعلم العربية من قبيلة جرهم فهذا لا يعني أنه كان أعجميا قبل ذلك، وانما ترك سيدنا إبراهيمُ عليه السلام سيدنا إسماعيلَ عليه السلام مع أمه هاجر في مكة لوحدهما فتعلم سيدنا إسماعيل من امه هاجر العربية ولكن ليست عربية الحجاز وانما عربية مصر يعني اللهجة المصرية، وهنا يحق لنا طرح عدة تساؤلات :

1-كيف تكلمت هاجر مع جرهم وبأي لغة؟

2-بأي لغة تكلم ابراهيم عليه السلام مع زوجة اسماعيل عليه السلام؟

فلم يرد اسم اللغة التي تحدثت بها هاجر مع جرهم ولا اللغة التي تحدث بها ابراهيم عليه السلام مع (زوجة اسماعيل عليه السلام) في القرآن ولا السنة النبوية الشريفة، وكعادة القرآن الكريم لو كان هناك التباس أو اشكال لأزاله، فلم يبق إلَّا القول بأن اللغة التي تواصلوا بها واحدة وهي اللغة التي تكلم سيدنا إبراهيم وهاجر وإسماعيل مع اختلاف اللهجات لا اللغات.

ويبقى سؤال ينقدح في العقل: كيف يمكن الافتخار بعد ذلك ويقال: إسماعيل عليه السلام أبو العرب إذا تعلم العربية من جرهم؟!.

المقدمة السابعة: الأمة الإسرائيلية تاريخ يمتد من زمن يعقوب عليه السلام إلى آخر الزمان

جهد كهنة بني إسرائيل ودسوا في كتب التاريخ والتفسير أخباراً توحي بأن بني إسرائيل أمة ذكرت في الأزمنة الغابرة وليس لها وجود في المستقبل وقد ذابت في الأمم الأخرى ومُزقوا كل ممزق وتقطعوا في اصقاع الأرض، كعادتهم في الكذب والتحريف والتزوير، وساعد في ذلك المفهوم الخاطئ الذي رسخوه عن الديانة اليهودية والنصرانية وهي تدل على تحريف الأحبار والرهبان للكتب الإلهية بعد عيسى عليه السلام ومن ثم انتشرت الديانات المحرفة اليهودية والنصرانية في **أتباعهم** من أمم الأرض، وبذلك استطاعوا تغيير المفاهيم، فاذا قلت: سيقاتل المسلمون اليهود آخر الزمان، انصرف الذهن مباشرة إلى الروم أو الصهاينة أو غيرهم ممن دخلوا في الديانات المحرفة، مع كون الآيات والأحاديث تشير اليهم لا إلى أتباعهم، ويشير إلى ذلك الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تَقُومُ السّاعَةُ حتّى تَأْخُذَ أُمَّتِي بأَخْذِ القُرُونِ قَبْلَها، شِبْرًا بشِبْرٍ وذِراعًا بذِراعٍ، فقِيلَ: يا رَسولَ اللَّهِ، كَفارِسَ والرُّومِ؟ فقالَ: ومَنِ النّاسُ إلّا أُولَئِكَ)[2]، وفي رواية الأصيلي: (بما أخذ القرون قبلها) وفي رواية الإسماعيلي: كما فعلت فارس والروم؟ والمعنى: لا تقوم الساعة حتى تسير أمتي بسير بني إسرائيل كما وقع لفارس والروم أو أن بني إسرائيل سنّوا في الفرس والروم عوائد ليغزوا بها أذهان المسلمين حيث سادت في هذه المرحلة عوامل التأثر الانفعالي بحضارة المادة في الغرب بعد ظهور الثورة الصناعية! ومفهوم الحديث يدل على اتّباع عوام أمته ﷺ سنن بني إسرائيل كما فعلت الأمتان المشهورتان لأن مُلك البلاد منحصر في بني إسرائيل وجميع من عداهم من الأمم تحت حُكمهم، وهو مما فهمه البخاري إذ خرجه في باب: ذكر بني إسرائيل.

2- صحيح البخاري (7319)

وكانوا يقولون إنما يعلمه جبر الرومي وهذه شنشنة قديمة فيهم إذ يصرفون الآيات النازلة فيهم إلى أتباعهم تمشياً مع خدعهم ومكرهم! ويؤكده قوله ﷺ:(لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ بَنِي إسرائيلَ شِبرًا بشِبرٍ، وذِراعًا بذِراعٍ، حتى لو دخَلَ رَجُلٌ من بَني إسرائيلَ جُحْرَ ضَبٍّ لَتبِعتُموهم فيه، وقال مَرَّةً: لَتَبِعتُموه فيه)[3]، وفي رواية (لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن قَبْلَكُمْ شِبْرًا بشِبْرٍ، وَذِراعًا بذِراعٍ، حتّى لو سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ، قُلْنا: يا رَسُولَ اللَّهِ، اليَهُودَ والنَّصارى؟ قالَ: فَمَنْ؟)[4]، وهذا لا يمنع أَنْ يستنفر بنو إسرائيل أمم الأرض لتحارب أهل الإسلام! فهم تبع لبني إسرائيل في هذا الشأن.

وأخيراً فإن القول بانقضاء الأمة الإسرائيلية قول لا يستقيم مع نصوص الوحي، إذ أنّ القرآن الكريم يقرر بوضوح استمرار وجود بني إسرائيل في التاريخ إلى آخر الزمان، وأنهم لم يكونوا مجرد صفحة مطوية في تاريخ الامة، قال تعالى:

1- ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾

2- ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾

3- ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

4- ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

3- أخرجه البخاري (3456) ومسلم (2669) واحمد (11897) واللفظ له.

4- أخرجه البخاري (3456) ومسلم (2669) باختلاف يسير.

5- ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

الآيات السابقة نزلت في سياق الحديث عن بني إسرائيل، فالآية الثانية تشير إلى استمرار النصارى من بني إسرائيل إلى قيام الساعة لأن سياق الحديث من بداية سورة المائدة عن بني إسرائيل، والآية الثالثة تشير إلى استمرار اليهود من بني إسرائيل إلى قيام الساعة والآية الرابعة تشير إلى استمرارهم جميعا إلى قيام الساعة، وما داموا مستمرين وموجودين إلى قيام الساعة فمن باب أولى أن يكون لهم أتباع تدينوا بالديانات المحرفة[5]، والآية الأخيرة تشير إلى أن القرآن ﴿يَقُصُّ﴾ (بدلالة الفعل المضارع) الدال على الاستمرار.

فلا داعي لجعل الحديث عن بني إسرائيل وكأنه حديث عن أساطير الاولين من الأمم الغابرة.

وبعد هذه المقدمات نشرع في مطلوب الكتاب وهو دراسة النصوص الشرعية التي تشير إلى عروبة بني إسرائيل والله الموفق.

5- ومن هنا أتى خلط الأوراق، فتارة يقولون أن بني إسرائيل قد ذابوا في الأمم ولا وجود لهم كقبيلة، فإذا واجهتهم بهذه الآيات صرفوها وقالوا هذه الآيات عامة في اليهود والنصارى وهم موجودون الآن وبكثرة في الأرض، فخلطوا بين الاتباع والمتبوعين وجعلوا الأصل فرعا والفرع أصلا!!.

عروبة بني إسرائيل

القرآن الكريم اشتمل على الإيجاز والإطناب، وعلى الإجمال والتبيين، وعلى الإطلاق والتقييد، وعلى العموم والخصوص، وما أوجز في مكان قد يبسط في مكان آخر، وما أجمل في موضع قد يبين في موضع آخر، وما جاء مطلقاً في ناحية قد يلحقه التقييد في ناحية أخرى، وما كان عاماً في آية قد يدخله التخصيص في آية أخرى؛ لهذا كان لابد لمن يتعرض لتفسير كتاب الله تعالى أن ينظر في القرآن أولاً: فيجمع ما تكرر منه في موضوع واحد، ويقابل الآيات بعضها ببعض، وقد فعل ذلك رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم فقد فسر القرآن الكريم بالقرآن الكريم حيث سئل صلى الله عليه وسلم عن قوله سبحانه وتعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ فقال الصحابة لما نزلت: وأينا لا يلبس إيمانه بظلم؟ فقال صلى الله عليه وسلم: ألم تقرؤوا قول الله تعالى ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ ففسر رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم الظلم في الآية الأولى بالشرك في الآية الثانية، ومن هنا كانت وظيفة القرآن الأساسية إزالة الإشكال، وتحرير الإنسان من قيود الظنون التي ترد على الأذهان، ليكون القارئ أمام خطاب محكم، يرسّخ اليقين ويكشف الحقائق ويبدّد الغشاوة.

وعندما يُذكَر بنو إسرائيل في القرآن الكريم وتتكرر الإشارة إليهم في سياقات شتى؛ فإن ذلك لغرض عرض تاريخهم وتقلباتهم، وتارةً في وصف أخلاقهم ومواقفهم من الحق، هذا التكرار الكثيف إنما هو دعوة ربانية للتدبر والتتبع، حتى ينكشف ما علق بأذهان الناس من إبهام حول حقيقتهم، سواء في لسانهم الذي تكلموا به، أو في تاريخهم الذي زُيّف وحرّف، أو في صفاتهم التي حاول التاريخ أن يُلبسها ثوباً مغايراً للواقع، ومن هنا يغدو لزاماً على الباحث أن يقابل الآيات القرآنية بعضها ببعض حتى يظهر النور الذي يزيل الغشاوة، وتتضح الصورة كاملة كما أرادها الله في كتابه المبين، ففي قصة ذي القرنين قد يتساءل القارئ: كيف استطاع ذو القرنين أن يتواصل مع أمةٍ نائية في أقاصي الأرض؟ فجاء البيان الإلهي الذي يزيل الاشكال ﴿لَا يَكَادُونَ

يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ ليظهر أن هؤلاء القوم كانوا معزولين لغوياً وحضارياً عن بقية الأمم وأن حاجز اللغة والثقافة جعل من لقائهم حدثاً استثنائياً وأن بناء السدّ كان ضرورة حتى لا تختلط حضارة الناس المعروفة بتلك الأمة الغريبة، وفي المقابل حين نقرأ قصة موسى عليه السلام مع شعيب –وهو عربي باتفاق– لا نجد ذكراً لأي حاجز لغوي، وكذلك الحال مع إبراهيم عليه السلام في محاجته لخصمه النمروذ – في مصر – والتي وردت قصتها في سورة البقرة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ..﴾الآية، إذ لم يرد أي إشكال في التواصل مما يدل على وحدة اللسان وتقارب الحضارات في تلك السياقات، وهذا يفتح لنا باباً مهمّاً في فهم مسألة عروبة بني إسرائيل فالقرآن لم يصفهم بعجمة اللسان ولو كانوا كذلك لنبّه عليه القرآن كما هي عادته في الإيضاح والبيان وبذلك يتبين أن لسانهم لم يخرج عن دائرة اللغات العربية بل هو من صميمها الأمر الذي يعزّز القول بأنهم جزء من الامتداد العربي في اللسان والجغرافيا والتاريخ.

ومن معجزات القرآن أنه شرح من أحوال بني إسرائيل ما لا يعلمه إلا أحبارهم وخاصتهم مع حرصهم على كتمانه والاستئثار به خشية المزاحمة في الجاه والحكم، فجاء القرآن صادعاً بما لا يعلمه غير خاصتهم مما يقصون منه العجب! قال تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ والضمير في ﴿يَكُن﴾ عائد إلى القرآن الكريم، والعلم هو إدراك الشيء على حقيقته إدراكاً جازماً ونقيضه الجهل فكيف يمكن لعلماء بني إسرائيل أن يكونوا عالمين بالقرآن إذا نزل بغير لغتهم؟

وقرأ الشامي بتاء التأنيث ورفع التاء ﴿أَوَلَمْ تَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾ والتأنيث محمول على محذوف تقديره: "قصة الاستخلاف" والمعنى: أو لم تكن لهم القصة عِلمُ علماء بني إسرائيل به آية؟ والاستخلاف: هو تفويض بحكم الأرض وسياسة الناس وفق عقد بين ملك الملوك وبين المفوضين

بالحكم في الأرض، وقد استخلف الله قوم نوح، ثم استخلف عاداً ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةًۖ﴾ واستخلف بعدهم ثمود ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ واستخلف قوم لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع وقوم فرعون، واستخلف بعدهم بني إسرائيل ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ واستخلف كذلك بني إسماعيل وخص قريشاً بالتفضيل على نحو ما ورد في الصحيحين: (الناس تبع لقريش في هذا الشأن) وعلى هذا انعقد إجماع الصحابة ومن بعدهم، والله يؤتي ملكه من يشاء من عباده ويختار من يشاء من الناس لحمل الأمانة، ولما حملها بنو إسرائيل نقضوا الميثاق واتّبعوا الشيطان وأشركوا بالرحمن!.

وفي القرآن ذَكَرَ الكريم المنان تسع أمم استخلفها في الأرض كما استخلف بني إسرائيل فاتخذت شركاء من دون الله ثم برزت كل أمة في معصية تجاهر بها فبارز قوم شعيب ربهم ببخس المكيال وقوم لوط باللواط...وبنو إسرائيل بارزوا ربهم المنعم عليهم بكل ما لدى تلك الأمم من الفواحش والمعاصي! وبحسب الاستقراء لأماكن الأمم الغابرة تبيّن أنها تقع داخل المنطقة العربية اليوم وهي مسكن بني إسرائيل وهذا في معنى قوله تعالى ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي في مساكن قوم نوح وعاد وثمود وقرونا بين ذلك كثيرة ممن هلك.

وقد تكلّمَتْ تلك الأمم المستخلفة بالعربية التي نزلت بها الكتب الإلهية فقد روى الإمام الطبراني في المعجم الأوسط والهيثمي في مجمع الزوائد عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (والذي نفسي بيده ما أنزل الله وحياً قط على نبي بينه وبينه إلا بالعربية ثم يكون هو بعد يبلغه قومه بلسانه) والمقصود من التبليغ تبيين ما في الكتب الإلهية من المعاني والكشف عن المراد منها وليس المقصود الترجمة إلى الألسنة الأخرى وذلك لأمور: منها:

1. تنافر حالتي الكتاب والمرسل إليهم.

2. أن الكتب الإلهية هي كلام الله المنزل بالعربية والترجمة ليست كذلك.

3. لو فرضنا أن بني إسرائيل ليسوا من العرب لكانوا أولى الناس بالترجمة إذ الخطاب القرآني ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ موجه إليهم و لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه ترجم القرآن الكريم إلى اللسان العبراني أو إلى غيره.

4. لو فرضنا نزول الكتب الإلهية إلى أعاجم لأدى إلى أشد الفرقة وربما قالوا لرسولهم عند اختلاف الألسنة: لا نفهم ما نزل إذ قالوا ذلك مع اتفاق اللغات فقد قال قوم شعيب عليه السلام: ما نفقه كثيراً مما تقول! هذا هو عليه السلام يخاطبهم بلسانهم فكيف لو كان على خلاف ذلك؟.

وعليه فإن معنى قوله "ثم يكون هو بعد يبلغه قومه بلسانه" التبيين على حد قوله تعالى ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾.

وعلى حد قوله سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ﴾ أي لستم على شيء مستقيم حتى تقيموا التوراة والإنجيل والقرآن الكريم وهذا يناسب قوله قبله ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ والمقصود بنو إسرائيل بقرينة قوله بعده ﴿لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗا﴾ (المائدة 70) والرسل إنما أرسلوا بحسب ما وقع عليه التواطؤ في لسان المستخلفين المرسل إليهم وهو اللسان العربي، كما أشار قوله تعالى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ فإن بني إسرائيل حرفوا الكتب الإلهية وترجموها إلى اللغات الأخرى بما يزيدها إبهاماً وأقاموا أدلتها بما يملؤها التباساً وموّهوا على الناس اللسان الذي أنزل الله تعالى به الكتب وبعث به الرسل، والكلام في الآية عطف على قوله ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ أي القرآن النازل بلسان قومك لتبين لهم المصدق لما بين يديه من الكتب المهيمن على جميعها وإذا تأملت ذلك وأمعنت فيه النظر لاح لك سرّ تعقيبه بالتهديد للكافرين الذين نزل القرآن بلسانهم فالتمسوا لسبيله تعالى

الزيغ والتحريف وسعوا في إلقاء الشكوك والشبه يطلبون اعوجاج السبيل الإلهي والطريق المحمدي ويصفونها بما ينفر السالك عنها وكأن هذا من تمام قوله سبحانه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ أي كما أرسلنا قبلك المرسلين وأنزلنا الكتب عليهم بالعربية فكذبوا وخالفوا ومكروا كذلك أنزلنا إليك هذا القرآن ثم أعقب بالتمثيل بالنظير تسلية للبشير النذير ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ فابتدأ بذكر القرآن وأردف بذكر التوراة دليلاً على أنه تعالى يضل من يشاء إضلاله حسب قهره وجلاله ويهدي من يشاء هدايته بمقتضى لطفه وجماله وهو في ذاته العزيز الغالب على عموم مشيئته، الحكيم في فعله على مقتضى إرادته ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ والظلمات أنواع: ظلمة الكفر بأنواعه وظلمة الجهل بأنواعه وظلمة الظلم بأنواعه...فشرّف المولى سبحانه العرب على غيرهم من الأمم إذ أنزل كتبه بلسانهم وجعل أنبياءه منهم فإن آدم عليه السلام لما نفخ الله فيه الروح عطس فقال: "الحمد لله" وهي كلمة عربية تتعذر ترجمتها بمفردات من اللغات الأخرى تؤدي المراد منها أي لا يوجد لها مقابل في جميع الألسنة! روى النسائي بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس، فحمد ربه بإذن الله له فقال: الحمد لله، فقال له ربه: رحمك ربك يا آدم، اذهب إلى أولئك الملأ، وملأ منهم جلوس، فقل: السلام عليكم، فقالوا: سلام عليك ورحمة الله، ثم رجع إلى ربه فقال: هذه تحيتك وتحية ذريتك بينهم) ولما قص الله تعالى في سورة طه من أنباء ما قد سبق من بني إسرائيل عطفَ عليه قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي كما أنزلنا الكتب على الرسل بالعربية؛ كذلك أنزلنا عليك القرآن عربياً، فشبَّه إنزاله عربياً بما أنزل إلى ما تقدم من كتب أهل الكتاب أي مثل إنزال كتب أهل الكتاب.

واللغة هي الكفيلة بإيضاح حقائق التنزيل والإفصاح عن خفايا التأويل، وإظهار دلائل الإعجاز وشرح معالم الإيجاز، وعلوم اللغة ممتزجة بعلم التفسير لا تكاد تنفك عنه، ومن غفل عن هذه البديهة فقد ضل السبيل وأوغل، وهي مما أوحى بها العليم الخبير إلى عبده آدم ليكون أنبهَ لها وأذهبَ في شرف الحال بها، والعربية كانت وستبقى حضارة يضيق عنها الوصف وينحسر عنها الكلم فلا يكاد يبين، وصارت لوسيع مذاهبها وبديع مناحيها من أفضل وسائل

التربية والتهذيب دون منازع، عبقريتها في صياغتها، وأسرار جمالها في خصائص تركيبها، وكفاءتها العالية في تشقيق معانيها.

والاستفهام في الآية ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فيه تنويه بالقرآن وحجة على التنويه السابق ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ففي سفر التثنية من كتب موسى عليه السلام في الإصحاح الثامن عشر قول موسى: (قال لي الرب: أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به) فدل هذا على أمرين؛ الأول: أن بني إسرائيل من العرب لقوله: (فيكلمهم بكل ما أوصيه به) ولا يستقيم أن يكلمهم بغير لغتهم، والثاني: أن هذا النبي من غير بني إسرائيل لقوله: (من وسط إخوتك) فإن الخطاب لبني إسرائيل ولا يكونون إخوة لأنفسهم، وإخوتُهم هم أبناء أخي أبيهم: إسماعيل أخي إسحاق وهم جميعاً من العرب، وكلام الله المجعول في فمه هو القرآن العربي الموحَى به إليه وهو يتلوه...وهذا دليل على أن بني إسرائيل من العرب.

وفي إنجيل يوحنا قول المسيح في الإصحاح الرابع عشر: (وأنا أطلب من الأب – أي الرب – فيعطيكم مُعَزياً – أي رسولاً – آخرَ ليمكث معكم إلى الأبد...ثم قال: فهو يُعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلتُه لكم) وهذا دليل على أنهم من العرب فلو نزّله باللسان الأعجمي لتجافوا عنه أصلاً ولقالوا: ما نصنع بما لا نفهمه فيتعذر التذكير به، وهذا التعليم لكل شيء هو تنزيله بلسانهم، ومعلوم أن لسان بني النضير وقينقاع وقريظة كان عربياً وكان لهم في المدينة وخيبر من الفصاحة والبلاغة والعلم ما لا يحتاج مَن طالع السيرة فيه إلى توقف وكان منهم الشعراء المبرزون ومع ذلك لم يَقدِر أحد منهم على الطعن في القرآن ولا عارضه منهم إنسان.

ونظم الآيات وسياقها يؤكد ذلك، والسياق لُجّة لا ساحل لها، يَمرُّ به الكثير ممن لا يحسن العَوم فيه ساهين عنه، وهذا الباب لمن يستفتحه من أنفع فواتح الفهم في القرآن.

ثم بيّن المولى سبحانه عناد بني إسرائيل وأقام الحجة عليهم ودعاهم إلى التفكر وكأنه يقول: إن هذا القرآن أنزلته إليكم بلغتكم لا بلغة أجنبية عنكم، فأزاح عنهم العلة ودمغهم بالحجة، وأخبر أنه لو نزله على الأعاجم لم يفهموه وكانوا أجهل الناس به ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾ قال الإمام القرطبي: أي على رجل ليس بعربي اللسان ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم﴾ بغير لغة العرب لما آمنوا ولقالوا: لا نفقه، نظيره ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا﴾ الآية. وقال الإمام النسفي: جمع أعجم وهو الذي لا يفصح وكذلك الأعجمي إلا أن فيه لزيادة ياء النسبة زيادة تأكيد ولما كان من يتكلم بلسان غير لسانهم لا يفقهون كلامه قالوا له أعجم وأعجمي شبهوه بمن لا يفصح ولا يبين والعجمي الذي من جنس العجم أفصح أو لم يفصح، اهـــ.

ثم أخبر سبحانه عن معرفة علماء بني إسرائيل به، وتمكّنه في قلوبهم أشد التمكّن، وأخبر عن سابق حُكمه بالشقاوة عليهم، وصادق علمه بهم وأنهم لا يؤمنون به حتى يروا العذاب يوم القيامة، حين لا ينفعهم إيمان ولا ندامة، فقال ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي هكذا نولج القرآن في قلوبهم لتقوم الحجة عليهم، فإنهم يعرفونه ويفهمونه ويدركون خصائصه إذ هو بلغتهم وإنما يكابرون ويعاندون لمجرد المكابرة والعناد، لا لضعف الحجة ولا لقصور الدليل، ثم بيّن تعالى أن هذه عادته فيهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم.

ومعنى قوله ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي أن ذكر القرآن وارد في كتب الأولين، وكلها بالعربية على نحو ما جاء في الحديث المتقدم: (ما أنزل الله وحياً قط على نبي بينه وبينه إلا بالعربية) وأما السريانية أو العبرانية فهذه ألسنة شركاء بني إسرائيل وقد ترجموا لهم الكتب الإلهية وفرّقوها عليهم ثم فسروها بالعربية لأهل الإسلام تشغيباً كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا بالله وما

أنزل إلينا وما أنزل إليكم)[6] الآية. ويؤيده ما رواه البخاري في صحيحه عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت في ورقة بن نوفل: (وكان يكتب الكتاب العربي ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب)[7] وفي رواية للبخاري: (وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب)[8] وذلك أن الكتب نزلت بالعربية ثم ترجمها أهل الكتاب إلى العبرانية فكان ورقة يكتب الكتاب العربي والكتاب العبراني لتمكنه من الكتابين واللسانين، ولذلك أمر صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت بتعلم السريانية معللاً ذلك بأنه لا يأمن اليهود على كتابه.

وقد نزل القرآن الكريم ليصحح البناء الذهني للبشر ويكشف ويفضح هذه الفئة التي تجيد المداورة وتتقن المراوغة وتنفذ من الأسوار وتتبادل الأدوار ويُبين مداخلها ومسارها ويقطع الطريق عليها من خلال رسم خريطة عامة تُبيّن مسار انحرافها واختلافها وتفرقها إلى فرق عديدة وضلالها في عقائدها وانعكاس ذلك على الأمم التي سارت بسيرها.

والمقصود بوصف الكتاب بأنه عربي في سورة الشعراء غرضان:

أحدهما: التنويه بالقرآن ومدحه بأنه منسوج على منوال أفصح لغة في أعلى طبقات اللسان العربي وأبعدها عن التكليف مع فخامة الألفاظ وجلالة المعاني وعلو النظم ورصافة السبك ووجازة العبارة ودقة الإشارة مع سهولة الفهم وقرب المتناول.

وثانيهما: التورّك على المعاندين من العرب حين لم ينتفعوا بهديه فكانوا كمن يسمع كلاماً بلغة غير لغته، وفيه تقبيح لهم حين أهملوا التدبر فيه، وأن كماله في البيان والإفصاح يستأهل العناية به لا الإعراض عنه، والتعرض لكون القرآن عربياً للإشارة إلى أن ذلك إحدى مواد الموافقة للكتب السابقة.

6- رواه البخاري عن ابي هريرة (7542)

7- رواه البخاري عن عائشة ام المؤمنين رضي الله عنها (4953)

8- رواه البخاري عن عائشة ام المؤمنين رضي الله عنها (3)

2–ويشير إلى عروبتهم شَبَه سيدنا موسى وعيسى عليهما السلام فقد روى الإمام مسلم عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (عُرض عليّ الأنبياء فإذا موسى ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم عليه السلام فإذا أقرب من رأيت به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم – يعني نفسه – فحانت الصلاة فأممتهم) وشنوءة وثقيف قبيلتان شهيرتان من العرب ويعضد ذلك قوله تعالى ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ أي لتكون من الذين أَنذروا باللسان العربي على نحو ما ورد في قوله سبحانه ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ والتصديق يجزم بأن القرآن حاكم على ما اختلف فيه، فإنه بلغة العرب التي جاءت بها صحف إبراهيم وموسى واللغة التي تكلم بها عيسى وأتباعه أصحاب الإنجيل، والمصدق: المخبر بصدق غيره، وحُذف مفعول المصدق ليشمل جميع الكتب السماوية.

3–وفي مطلع سورة يوسف احتجاج وتقرير واستشهاد وتقريع وتنبيه وتلويح وإشباع وتصريح وإعذار وإنذار ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ والمخاطب هنا بنو إسرائيل ابتداء رجاء أن يعقلوا أي يصيروا ذوي عقول لأن الإعراض عن آيات الله ينبئ عن خساسة عقل بحيث ينزّل منكروها منزلة من لا يعقل، وتنزيل القرآن بالعربية التي هي لسان بني قينقاع وقريظة والنضير، هو تنزيل له على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لأنه يفهمه ويفهمه قومه، إذ لو كان أعجمياً فلا يكادون يفطنون للمعاني والألفاظ كيف جرت، قال تعالى ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ أي لو جئناهم بلون آخر من معجزة الأمية فأنزلنا على الرسول قرآناً بلغة العجم لقلبوا معاذيرهم وكانوا لتعنتهم يقولون: هلا بُينت آياته بالعربية حتى نفهمها "ءأعجمي وعربي" أي كيف يلتقي أعجمي وعربي يعني كيف يكون القرآن أعجمياً والمخاطب به عربياً؟ وكيف يكون آية على قوم وهو شيء لا يعرفونه ولا

يقفون على جنسه ليمتحِنوا قُواهم في معارضته؟ إذ أن مبنى الإنكار على تنافر حالتي الكتاب والمكتوب إليه! فلو جعله الله قرآناً أعجمياً لاعترضوا عليه وقالوا: لولا جاء عربياً فصيحاً مفصلاً حتى نفهمه! وكذلك الكتب السابقة لو نزلت بلسان أعجمي أو إلى أعاجم لكان منافياً لهذا المقصود ويؤدي إلى أشد الفرقة ويكون فهمهم لأحكامها ووقوفهم على حقائقها أصعب، ويكونون إلى الغلط والخطأ أقرب، وتؤدي بهم التراجمة إلى التنازع والتحريف، فانتهض الدليل على المنكرين، وظهر أن نزول الكتب بالعربية أقرب وأقطع لعذر الإسرائيليين، وحاصل معنى الآية: أنها تؤذن بكلام مقدر داخل في صفات القرآن، وهو أنه بلسان عربي بلغة من استخلفهم الله في الأرض إتماماً لهديهم فتعنتوا وتعللوا بالتعلّلات الباطلة، فالآية تبين طريقتهم في التعنت والمراء والجدل...

4–في سورة يوسف أيضا نلاحظ قوله تعالى: ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ وهذا يدل على المسرح الذي دارت فيه أحداث قصتهم والمكان الذي يسكنون فيه هو المنطقة العربية.

5–ونظير ما سبق قوله تعالى في سورة مريم عليها السلام: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾، والنخل يغلب وجوده في المنطقة العربية.

6– الآية في سورة الصف: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، تكشف في بنائها الدقيق عن وحدة المخاطَب عبر زمني الرسالتين (وهم بنو إسرائيل): فمن ناداهم عيسى عليه السلام بـــ ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ هم أنفسهم الذين جاءهم النبي محمد ﷺ بالبينة، وهم أنفسهم الذين قالوا: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. هذه (الفاء) الفاصلة بين البشارة والبعثة ليست مجرّد انتقالٍ سردي، بل جسرٌ دلاليّ صريح يحدد هوية الجماعة التي تلقت الخطابين معاً،

وهذه الجماعة، وفق الحقائق التاريخية القطعية، لم تكن مبعثرة في أطراف الأرض، بل كانت مجتمعة في قلب جزيرة العرب في يثرب وخيبر وتيماء متمثلة في قبائل بني قريظة وبني النضير وبني قينقاع وتوابعها؛ وهي قبائل اتخذت العربية لساناً وخاطبها القرآن بلسانها.

والدلالة الحاسمة هنا أن تؤكد أن الذين بشرهم عيسى عليه السلام هم الذين جاءهم سيدنا محمد ﷺ، فهذا يعني بدلالة الالتقاء لا الانفصال أن بني إسرائيل الذين واجهوا الرسالة المحمدية كانوا جزءاً من نسيج المجتمع العربي، يعيشون بلسانه وثقافته ويُحسبون عليه.

وعليه فإن الآية الكريمة لا تُقدِّم مجرد إخبار تاريخي عن بشارة عيسى، بل تُقدِّم برهاناً مباشراً على أنّ بني إسرائيل المعاصرين للبعثة كانوا عرباً في اللسان والهوية الاجتماعية؛ إذ لو لم يكونوا كذلك، لما صحّ أن يجمع القرآن بينهم وبين المخاطبين بالرسالة المحمدية في وحدة سياقية واحدة، ولا أن يجعل ردّهم ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ علامة على كفرهم، شأنهم شأن العرب من مشركي مكة.

وعليه، فالمسار القرآني في هذه الآية يُسقط الفرضيات القائلة بانعزال بني إسرائيل وانقطاعهم عن البيئة العربية، ويثبت أنّهم أمّة عربية الأصل، تلقّت البشارة من عيسى عليه السلام، ثم التقت بالدعوة المحمدية، وتفاعلت معها ضمن الإطار العربي الجغرافي والثقافي نفسه، وهذا يجعل الآية حجّة قرآنية بالغة القوة في تقرير عروبة بني إسرائيل، ويجعلهم فرعاً أصيلاً من المجتمع العربي[9].

7–ومن الشواهد الدالّة على وجود بني إسرائيل في البنية العربية والمفصحة عن عروبة البيئة التي تحرّك فيها تاريخهم ورودُ أسماء الأنبياء والشخصيات المرتبطة بتاريخهم في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف بصياغة عربية خالصة، مثل:

9- فأصحاب القصة التوراتية والإنجيلية لم يكونوا أعاجم و لم يظهروا في أرض العجم وإنما ظهروا في أرض عربية أرض الرسالات السماوية الثلاثة الكبرى الموسوية والعيساوية والمحمدية،

قوله تعالى: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَانَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾

وقوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾

فهذه الأسماء: (ذو الكفل، يحيى، عمران، السامري) جميعُها على أوزان عربية ظاهرة، وهو ما يعكس أن حَمَلة هذه الأسماء تحرّكوا ضمن حيّزٍ عربي اللسان، ويعضد ذلك ورود سارة وهاجر عليهما السلام، وآسِيَة بنت مزاحم زوج فرعون، بأسماء جارية على سَنَن العربية في الصياغة والتلقي.

وليس هذا مجرّد توافقٍ لفظيّ عابر؛ إذ ثبات الاسم على قالب لُغويّ في كتابٍ نزل بلسانٍ عربيّ مبين يشي بانتماء المُسمّى إلى حيز اجتماعيّ ولسانيّ يتبنّى تلك القوالب ويُنتجها ويتداولها، فالاسم في الثقافة العربية علامة هوية تُنسب صاحبها إلى محيطه، وتُقحِمه في نسقٍ من الانتماء والقرابة والثقافة! ومن ثَمّ فإن انتظام أسماء أنبياء بني إسرائيل ورموزهم في معجم العربية ليس ظاهرة ترجمية محضة، بل قرينة هويةٍ ولسانٍ تدلّ على أنّ هؤلاء قد عاشوا وتَفاعلوا داخل النسيج العربي في الأسماء والتسمية والخطاب، الأمر الذي يعزّز ما تقرره هذه الدراسة من عروبة بني إسرائيل بيئةً ولساناً ووجوداً حضارياً

وبهذا يتكشّف أن الاسم القرآني ليس زخرفاً لفظيّاً، بل بِنْيَةٌ ثقافية تُسند التاريخ باللسان، وتضمّ حلقاته في سِلْكٍ عربيٍّ واحد، حيث تتعانق الدلالة النصّية مع الهوية الاجتماعية لإثبات عروبة بني إسرائيل في الصورة التي عاصرت الرسالات وتفاعلت معها.

8–قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ﴾ نلاحظ تقارب الوزن بين اسم قائد العمالقة جالوت الذي كان في فلسطين (العربية) وبين القائد الإسرائيلي طالوت، فالاسمين ينتميان إلى لغة واحدة.

9– قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ قال صاحب كتاب إعراب القران الكريم وبيانه: البادية والبدو هو البسيط من الأرض يبدو الشخص فيه من بعد يعني يظهر، والبدو خلاف الحضر والبادية خلاف الحاضرة وكان يعقوب وأولاده أصحاب ماشية فسكنوا البادية، وفي القاموس والتاج: البدو والبادية والبداوة الصحراء والجمع باديات وبواد والبدو أيضا سكان البادية من القبائل **العربية** الرحّل وهم ينقسمون إلى عدة قبائل والنسبة إلى البدو بدوي بسكون الدال وبدوي بفتحها والأنثى بدوية والجمع بداويّ وفي الأساس: (لقد بدوت يا فلان أي نزلت البادية وصرت بدوياً، وما لك والبداوة؟ وتبدّى الحضري، ويقال: أين الناس؟ فتقول قد بدوا أي خرجوا إلى البدو. اهـــ، وقال ابن منظور في لسان العرب: (والأعراب ساكنو البادية من **العرب** الذين لا يقيمون في الامصار ولا يدخلونها إلَّا لحاجة).

فالبدو هم العرب الرحل أما العجم الرحل فيقال لهم الغجر.

10– قال تعالى: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ١٠٥ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا﴾ قال المفسرون في ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ﴾:

الذين أوتوا العلم بالله وآياته من قبل نزوله من مؤمني أهل الكتابين (ابن جرير الطبري).

أي عالمي أهل الكتاب (جامع البيان).

واختَلَفَ الناسُ في المُرادِ بِـــ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦ﴾ -فَقالَتْ فِرْقَةٌ: هم مُؤْمِنُوا أهْلِ الكِتابِ. وقالَتْ فِرْقَةٌ: هم ورَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ، وزَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ، ومَن جَرى مَجْراهُما، وقِيلَ: إنَّ جَماعَةً مِن أهْلِ الكِتابِ جَلَسُوا وهم عَلى دِينِهِمْ فَتَذاكَرُوا أمْرَ النَبِيِّ عَلَيْهِ الصَلاةُ والسَلامُ وما أُنْزِلَ عَلَيْهِ، وقُرِئَ عَلَيْهِمْ مِنهُ شَيْءٌ فَخَشَعُوا وسَبَّحُوا لِلَّهِ وسَجَدُوا لَهُ، وقالُوا: هَذا وقْتُ نُبُوَّةِ المَذْكُورِ في التَوْراةِ، وهَذِهِ صِفَتُهُ، ووَعْدُ اللهِ بِهِ واقِعٌ لا مَحالَةَ، وجَنَحُوا إلى الإسْلامِ هَذا الجُنُوحَ، فَنَزَلَتِ الآيَةُ فِيهِمْ، وقالَتْ فِرْقَةٌ: المُرادُ بِـــ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦ﴾ مُحَمَّدٌ ﷺ، والضَمِيرُ في "قَبْلِهِ" عائِدٌ عَلى القُرْآنِ (المحرر الوجيز لابن عطية).

و﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦ﴾ هم مُؤْمِنُوا أهْلِ الكِتابِ. وقِيلَ: ورَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ، وزَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ ومَن جَرى مَجْراهُما، فَإنَّهُما كانا مِمَّنْ أُوتِيَ العِلْمَ واطَّلَعا عَلى التَّوْراةِ والإنْجِيلِ ووَجَدا فِيهِما صِفَتَهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ. وقِيلَ: هم جَماعَةٌ مِن أهْلِ الكِتابِ جَلَسُوا وهم عَلى دِينِهِمْ، فَتَذَكَّرُوا أمْرَ النَّبِيِّ ﷺ وما أُنْزِلَ عَلَيْهِ. وقُرِئَ عَلَيْهِمْ مِنهُ شَيْءٌ فَخَشَعُوا وسَجَدُوا لِلَّهِ، وقالُوا: هَذا وقْتُ نُبُوَّةِ المَذْكُورِ في التَّوْراةِ وهَذِهِ صِفَتُهُ، ووَعْدُ اللَّهِ بِهِ واقِعٌ لا مَحالَةَ، وجَنَحُوا إلى الإسْلامِ هَذا الجُنُوحَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِيهِمْ. (البحر المحيط).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦ﴾ فِيهِمْ وجْهانِ: أحَدُهُما: أنَّهم أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ، قالَهُ الحَسَنُ.

الثّانِي: أنَّهم أُناسٌ مِنَ اليَهُودِ، قالَهُ مُجاهِدٌ. (النكت والعيون).

والذين أوتوا الكتاب من قبلنا هم بنو إسرائيل الذين نزلت عليهم التوراة والانجيل إذ النبي كان يبعث إلى قومه خاصة فلو كانوا أعاجم لتعذر عليهم فهم القرآن والتفاعل معه لحظة تلاوته، وأما كونهم يخرّون سجداً عند سماعه فدليل على موافقة لسان القرآن للسانهم.

11–عند استعراض المسار التاريخي لبني إسرائيل، يتضح أن جميع أحداثه وقعت في قلب المنطقة العربية، وتحديداً في بلاد الشام ومصر والعراق وجزيرة العرب مما يعزز الطابع العربي الأصيل لهذه المناطق ويشير إلى الجذور العروبية لبني إسرائيل في سياقهم الجغرافي والتاريخي...

ذِكر بعض الشبه والرد عليها

1- الدولة الإسرائيلية على المسرحية السياسية الراهنة أخرجها بنو اسرائيل وأدارتها ماكينة الإعلام حتى صدّقها الناس وترسخت في أذهانهم، فصاروا يسقطون كل ما ورد في الوحي عن بني إسرائيل على الكيان الصهيوني القائم اليوم، والقرآن الكريم ينقل التفكير إلى منحى آخر غير ما يحاول الإعلام تكريسه، ومن هنا فإن الصراع القائم لا يُقرأ في ضوء الدولة المصنعة القائمة اليوم وإنما في ضوء البنية القرآنية التي تكشف عن طبيعة بني إسرائيل وصفاتهم وسلوكهم عبر الزمن.

2- القول بعروبة بني اسرائيل لا يعطيهم مكانة أعلى، وقد قال الامام علي رضي الله عنه:

لَعَمـــــرُكَ ما الإِنسانُ إِلّا بِدينِهِ فَلا تَترُكِ التَقوى اِتِّكالاً عَلى النَسَب

فَقَد رَفَعَ الإِسلامُ سَلمانَ فارِسٍ وَقَد وَضَعَ الشِركُ الشَريفَ أَبا لَهَب

3- عروبة بني إسرائيل وحشو التفاسير بالإسرائيليات لا يعني الطعن في التراث الإسلامي، وإن توسع البعض وتساهلوا في رواية أكاذيب أهل الكتاب حتى صارت مادة لفهم نصوص القرآن ولا سيما بعد قيام مراكز الأبحاث والجامعات والمكتبات الالكترونية وغيرها التي تحوي الكثير من تحريفهم وكتمانهم وإخفائهم لما أنزله الله ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾

4- القول بعروبة بني إسرائيل

استناداً إلى النصوص القرآنية والأحاديث النبوية يقوي المنهجية العلمية لهذا البحث لأن الحديث عن عروبتهم لا يمكن أن يُفهم على وجهه الصحيح إلا بالعودة إلى أوثق المصادر وأصدقها وهو القرآن الكريم المبيّن بالسنة الشريفة ومن هنا فإن الرجوع إلى القرآن والسنة هو استناد إلى الأصل الثابت ثم تأتي الأدلة التاريخية واللغوية لتكون شواهد مساندة فترتسم الصورة مكتملة وبهذا يتضح أن المنهج الذي نعتمده يجمع بين مرجعية الوحي التي لا يأتيه الباطل بحال، وبين شواهد التاريخ واللغة التي تبرهن على صدق الوحي، فلا ينفصل البرهان العقلي عن الدليل النقلي، ولا يُقصى المصدر الأوثق إرضاءً لمسلمات باطلة.

فقد آن الأوان لإعادة قراءة التاريخ بعيداً عن التأثيرات الخارجية والتغييرات الداخلية الممتزجة بالأفكار الإسرائيلية...

5- ضرورة الارتباط بين المصطلحات القرآنية: بني إسرائيل، أهل الكتاب، اليهود، والنصارى

وكذلك صفتي الكفر والشرك كما في الآية الكريمة ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً- إلى أن قال سبحانه - إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾. وذكر القرطبي في تفسيره أن المشركين وصف أهل الكتاب أيضاً لأنهم لم ينتفعوا بكتابهم وتركوا التوحيد فالنصارى مثلثة وعامة اليهود مشبهة والكل شرك وهو كقولك: جاءني العقلاء والظرفاء وأنت تريد أقواماً بأعيانهم تصفهم بالأمرين. اهـــ.

وجاء في المعجم الكبير للطبراني من حديث أبي أمامة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إني لم أبعث باليهودية ولا النصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة)

واعلم أيها الشاهد أن بني إسرائيل يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ومن هنا يكمن خطرهم إذ يتكلمون بألسنتنا ويدينون ظاهراً بديننا ويضمرون العداء للمسلمين ويهتبلون كل فرصة

للانقضاض على الدين ولا يفتؤون بالكيد للمسلمين والتحريش بينهم كما هو دأبهم، قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ وقد كشف المولى عز وجل عن تَقلّبهم في الشرائع والملل وبيّن طريقة اقتسامهم النحل المتخالفة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وابتدأ بذكر الذين آمنوا باللسان دون القلب تنبيهاً على عراقتهم ورسوخهم في النفاق في جميع أزمانهم! فالمراد بأصحاب هذه الصلات خصوص بني إسرائيل وقد عُرفوا بمضمون هذه الصلات في مواضع كثيرة من القرآن...

وكان بنو إسرائيل قد نشؤوا في البادية كما نصّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ وأشار النّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم ﷺ إليهم في حديث جبريل عليه السلام عند ابن حِبَّان في صحيحه: (إذا رأيتَ العالةَ الحُفاةَ العُراةَ يتطاولون في البناء وكانوا ملوكاً) قال: ما العالةُ الحُفاةُ العُراةُ؟ قال: (العُرَيْبُ) يعني الأَعْرَاب أهلَ البادية، قال القرطبي: المقصود الإخبار عن تبدل الحال بأن يستولي أهل البادية على الأمر ويتملكوا البلاد بالقهر، **وقال ابن منظور: والعرب أهل الأمصار، والأعراب منهم سكان البادية خاصة**، قال تعالى ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ وقال سبحانه ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَـٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ ومعنى مَرَد على الأمر أي مَرِن عليه ودَرِب به .

وهذا الوصف ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ ينطبق على قادة النِّفاق وأَئِمَّة الكفر الموصوفين في الصَّحيحين بالعبارات التَّالية: (رأس الكفر) (الحفاة العراة) (ملوك الأرض) (رءوس النَّاس) (قرنا الشَّيْطَان) (الفخر والخيلاء في أهل الخيل والإبل) (الفدَّادين).

خاتمة

نجزت عروبة بني إسرائيل بعون الله وحمده وصلاته على سيدنا محمد نبيه وآله وحزبه وتبيّن من خلال تحليل النص القرآني أنّ الخطاب الإلهي الموجَّه إلى بني إسرائيل جاء في كثير من سياقاته على نسق الخطاب الموجَّه للعرب؛ سواء في الأساليب البيانية أو في التوجيهات التشريعية أو في عرض الوقائع التاريخية، الأمر الذي يضع بني إسرائيل ضمن الإطار اللغوي ذاته الذي نزل فيه القرآن وأنّ عروبتهم ليست أطروحة مستحدثة ولا قراءة تأويلية طارئة، بل هي نتيجة مباشرة لتراكم الدلائل من القرآن الكريم والسنّة النبوية والقرائن التاريخية واللغوية.

كما أظهرت الدراسة أنّ إدراك هذا المعطى يفتح آفاقاً واسعة لفهم أعمق للآيات، ويُسهم في تفسير كثير من الإشكالات التي علقت بالفكر التفسيري عبر القرون نتيجة الانقلاب في المفاهيم وفصل بني إسرائيل عن محيطهم العربي، وبناءً على ذلك يصبح فهم الخطاب القرآني أكثر اتساقاً مع السياق؛ إذ يتضح أن المخاطَبين من بني إسرائيل كانوا عرباً، وأنّ القرآن جاء بلسانهم العربي.

ويدعم هذا الفهم أيضاً النظرُ في قصص الأنبياء وأسمائهم وسياقات أحداثهم، إذ تتجلى فيها الملامح العربية على مستوى اللغة والجغرافيا والتاريخ، بما يعزّز الحقيقة التي انتهى إليها البحث: أن بني إسرائيل (في صورتهم التاريخية التي عاصرَت البعثة النبوية) كانوا جزءاً أصيلاً من البنية العربية الكبرى، لا كياناً معزولاً.

وبذلك يتأكد أن ربط بني إسرائيل بأصلهم العربي لا يُعدّ مجرّد تصحيح معرفي، بل هو خطوة منهجية تُعيد للنص القرآني وحدته المفهومية، وتُزيل الالتباس الذي نشأ عن قراءة مبتورة للتاريخ واللسان.

وإلى جانب ما تقدّم من نتائج، فإن هذا البحث يقدّم إسهاماً منهجياً مهماً في ميدان الدراسات القرآنية والتاريخ، إذ يعيد ترتيب العلاقة بين النص الشرعي والتاريخ الاجتماعي لبني إسرائيل في ضوء قراءة سياق النصوص القرآنية، فالتوافق بين المعطيات اللغوية والحقائق الجغرافية والبراهين النصية يفتح

أفقاً جديداً لفهم أعمق لدور بني إسرائيل في التاريخ العربي القديم، ويُبرز تداخلاً لم يكن يُنظر إليه في الأدبيات المعاصرة بالقدر الكافي.

كما يؤكد هذا البحث ضرورة إعادة قراءة المرويات التاريخية المرتبطة ببني إسرائيل (الإسرائيليات) في ضوء الكتاب والسنّة، بعيداً عن الإرث التفسيري المتأثر بترجمات العهد القديم أو القراءات الاستشراقية التي فصلت بني إسرائيل عن محيطهم الطبيعي، ويُعيد هذا العمل التأكيد على أن الوحي ذاته يرسم خريطة واضحة للهوية، وأن كثيراً من الالتباسات ناتجة عن الفصل بين القراءة النصية للقرآن والقراءة التاريخية المزورة، والخلط بين خطاب القرآن للمتبوعين وخطابه للأتباع..

وبناءً على ذلك، فإن هذه الدراسة لا تقف عند حدود الكشف عن عروبة بني إسرائيل فحسب، بل تدعو إلى **منهج بحثي تجديدي** يُعيد الدمج بين علوم التفسير واللغة والتاريخ والأنساب، بما يُسهم في تصحيح مسارات معرفية مضطربة، وتجديد لكتب التفسير، ويضع بين يدي الباحثين أساساً يمكن البناء عليه في الدراسات القادمة المتعلقة بالتفسير وبتاريخ العرب قبل الإسلام.

اللهم هذا ما أملك فاستوهب لي ما لا أملك واجعله خالصاً لوجهك مقرباً إليك مقبولاً عندك لا رب غيرك ولا خير إلا خيرك

وإن تجد عيباً فسد الخللا ... فجل من لا عيب فيه وعلا

الفهرس

بين يدي الكتاب 7

المقدمة 9

توطئة..... 11

المقدمة الأولى: لمحة عن تاريخ بني إسرائيل..... 12

وصية الرَّسول الأعظم ﷺ..... 18

تلخيص المسار التاريخي لبني اسرائيل..... 20

المقدمة الثانية: يا بني إسرائيل 22

المقدمة الثالثة: دور الإعلام في ترسيخ المسلمات الخاطئة..... 24

المقدمة الرابعة: العرب العاربة والمستعربة 26

المقدمة الخامسة: هيمنة بني إسرائيل على المجتمع الجاهلي..... 30

المقدمة السادسة: عربية إسماعيل عليه السلام 33

المقدمة السابعة: الأمة الإسرائيلية تاريخ يمتد من زمن يعقوب عليه السلام إلى آخر الزمان.... 36

عروبة بني إسرائيل 39

ذِكر بعض الشبه والرد عليها 54

1- 54

2- القول بعروبة بني اسرائيل لا 54

3- عروبة بني إسرائيل و 54

4- القول بعروبة بني إسرائيل..... 54

خاتمة..... 58

الفهرس 61